قــدر

الطبعة الأولى 1443 هـ - 2022 م
(ISBN) : 978-9931-13-466- 4
الإيداع القانوني: 2022/05

اسم العمـــــل: قـــــــدر
اسم المؤلـــف: ونـــــــاسي مروى
تصميم الغلاف: زكريـــــــاء رقـــاب
إخـــــــراج: أحمد منصـــــوري
المدير العـــام / سميرة منصـــــوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـــي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 79 47 80 033 / 19 04 68 0770
واتساب/86 73 49 0675
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

رواية

وناسي مروى

قـــدر
KADAR

«عندما يستيقظ تراس من ورق»

المثقف
للنشر والتوزيع

" يوم كان العرب بدوا كانت صحراؤهم واحدة

وكانت قوافلهم تسافر دون تأشيرات

ولما تحضروا...

وقفت أحذية حرس الحدود في وجه القوافل ولكن النوق لم

تتحصل على جوازات سفر بعد...

فما زالت تنتظر أن يرجع العرب بدوا"...

أدهم الشرقـــــاوي

"قلنا له يا ولي الأمر:

حلمنا الليلة بوطن ليس فيه أحد فوق القانون

ولا واسطة فيه ولا فساد

قال عليكم بأذكار المساء فهذا أضغاث أحلام"

أدهم الشرقـــــاوي

قدر

...القدر نوعان قدر تملكه الحياة وآخر تملكه أنت

...أيقظ شعور الرغبة داخلك وتصالح مع القدر كي توهب لك الحياة ..

حاول أن تضع بصمتك وتحفظ صوتك بأحلام الغير لأن القدر سيسبقك

ويأخذك قبل أن تستيقظ من غيبوبة الحياة...

ـ مروى وناســـــي ـ

إلى أمي التي حبلت بأحلامي وهنا على وهن

ووضعتها عن إرادة و قوة وإيمان بأن الله على كل شيء قدير

فاختارت لها مكانا تحت جذع نخلة أين ولدت المعجزات

...

إلى أبي الذي سرقته الدنيا من الجنة ووضعته بين حنايا

الروح والقلب...

فكان بمثابة الفردوس المفقود...

....

إلى رائـد وشعيب /شـروق ولـجين

الدين لا شمس غيرهم تضيء لي طريق الحياة

إلى أسرتي الثانية هناك في مكان غير بعيد بالمدرسة العليا بقسنطينة وتحديدا في المكتبة أين كان الجميع يسمح لي بالعبث بالكتب والنوم بين أحضانها؛ إلى كل الطاقم الذي سهر على حماية المكتبة وحماية القراء من الضجيج.

إلى الدكتور الموقر: مزعاش مراد الذي أعطاني الأمل ووثق بي ورسم لي خط النور كي ينطلق القلم ...والذي كثيرا ما كنت أثق بكلامه كي أتمسك بأحلامي.

إلى قسم اللغة والأدب العربي بالمدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة

شكرا لكم جميعا لأنني عن طريق الأدب وجدت بدائلا لأحلامي..

إلى السيد : مناصرية عبد الوهاب مفتش اللغة والأدب العربي الذي آمن بقدسية الأخلاق قبل أن يؤمن بأمانة العلم...

والذي نقر له جميعا بفضله على أساتذة اللغة العربية

ففضله على الأدب فضل الثريد على سائر الطعام كما قال صلى الله عليه وسلم عن فضل عائشة على نساء العالمين.

كلمة خاصـــــة:

إلى الدكتورة القديرة بالمدرسة العليا للأساتذة : هـند سعـدوني / التي قالت لنا يوما:

"إذا ذهبت إلى التدريس وأنت خال من عطايا القلب والعقل معا فأنت لم تقدم أي درس يذكر".....

والتي أخبرتني يوما عندما صرحت لها بأنني سأشتاقها أن هناك أشخاص كالأوطان فراقهم غربة.

إلى التي لم كانت تؤمن دوما أن الأدب دون جمهور ؛هو أدب في حكم العدم .

إليك أكتب فضلك هنا ...

لأنك أيضا قدر جميل ...

إذا لامست هذه الكلمات قلبك فابتسمي من فضلك سيدتي .

يقول عبد الله المهيري :

" إن تأليف كتاب أمر سهل للغاية

وما صعوبة الأمر إلا فكرة كونتها أذهاننا دون وعي منا؛

ربما لأن بعض مدارسنا أخفقت في تحبيبنا إلى دروس اللغة العربية ؛ الأمر الذي جعلنا نعرض عن الكتب والقراءة؛

فما بالك بتأليف الكتب في الحقيقة ؛ إذا كنت حلو الكلام فحتما ستكون كاتبا يشار إليه بالبنان "

يقول أيضا :

"أن مهنة الكتابة هي ضمن أكثر 10 مهن احتراما على مستوى العالم"

يقول أحدهم :

احترت بين 4تخصصات في الجامعة

وتخصصت في شيء مختلف عنهم تماما

رسمت 3 خطط لما بعد التخرج وأسير الآن

في شيء لم أخطط له إطلاقا ؟؟

الأقلام مرفوعة

والصحف قبل ميلادك ..."جفت".

قبل أن تصدر حكما أو تحكم على التاريخ "
اسأل كليوباترا عن حقيقة قاتلها "

ـ مروى وناســـي ـ

أنت أيها الحاضر الغائب ....

اعتني بهذه الرواية جيدا ...

ضعها بين أحضانك عند النوم ...

بجانب أحلامك ....وبجانب مصحفك الذي لطالما كان صديقك الوحيد في هذا العالم البائس.....

أما عني أنا سأظل أكتب حتى لا تشعر بالوحدة مجددا.

أتعلم أيها الغريب ...

لقد صار بيننا وبين الحياة حاجز ثقيل لا يمكن رفعه إلا بالصلاة

هناك شيء بالنفس غريب لدرجة لا يمكن تفسيره إلا بالدعاء

لا يمكنك الهروب منه ....لا يمكنك تجاهله

إلا إذا وضعت كل ضعفك أمام الله متمسكا بما تؤمن بما أودعه فيك من قوة لتحمل رعب هذه الحياة ...

وتأبى أن تفارق تلك الهدنة الوحيدة بينك وبين صخب هذا العالم

-إذا راودك الحظ عن إيمانك ...

عليك أن تثبت ...

وتؤمن أنك على الحق المبين...

_ مروى وناســـي _

...بكت يوما من القهر ...

صرخت وتألمت ...أحست بالذنب ....أخفت آثار الدموع

أسقطت الحق في الدفاع عن نفسها ولوم الآخرين

فناداها صوت من داخلها :

فاذكروني كذكركم آباؤكم أو أشد ذكرا

منذ ذلك اليوم لم تترك سورة البقرة أبدا...

-c'est le destin qui distribue les cartes ,mais c'est nous qui les jouons-

Randy pausch

-ce n’est pas parce que le destin nous refuse quelque chose a un certain moment qu’il faut considérer ce refus comme définitif -

Elle na peur de rien

Mais un rien la fait rougir

Elle ne désire rien

Mais un rien la fait rêver

Elle ne dit rien

Mais un rien la fait chanter

Elle ne pense a rien

Mais un rien la fait douter

Elle ne rit de rien

Mais un rien la fait sourire

Elle ne s’attache a rien

Mais un rien la fait aimer

Elle ne croit en rien

Mais un rien la fait espérer

Elle ne ressent rien

Mais un rien la fait pleurer

C’est aicha…

عائشة سأبدأ ...

بدأت أكتب ..

رائحة الجمال التي لازلت أشمها ...تعينني كثيرا

كل هذه الرحلة والسفر سيكون لها ...

سأحمل كفها بكفي وأطوف بها سبعا حول قلب هذه الرواية ...

لا يمكن ذكر اسمها بسهولة هكذا ...

سأكتب اسمها هنا وأعلقه على ستار هذه الكلمات ...

عندها لن يأكل الصدى كلماتي ...

إنها الوقار :هند سعدوني ....لا تشبه أحد ...

لا يتجرأ عليها أحد ...لا يمكن لأحد أن يخمن الاقتراب منها ...

تنتمي إلى حيث ينتمي الذين لا يتغيرون ...

تشبه شجرة زيتونة مباركة أصلها ثابت بأرض طيبة كفلسطين وفرعها بالسماء ...

الحديث إليها أشبه بالحديث إلى نفسك ليلة القدر ...

الاستماع إليها وهي تتحدث إليك ...

يماثل شعور السفر على ظهر البراق في ليلة تشبه أجواؤها ليلة الإسراء والمعراج ...

عايشة سأكتب كما وعدتك ...

سنلتقي بأستاذتي مجددا ...

لننطلق ...

لم أستطع بعد مدة طويلة تفسير الأحكام التي تصدرها الأقدار والحياة....

لقد تغيرت ....وتغيرت السنوات ...ولازلت في محور ثابت ...

الجذع متمسك بنفسه بقوة لكن الفرع الذي في السماء تدور حوله فلوات كثيرة

،تغيرت التوقعات ،ما عادت تفيد الإغراءات...

بذلت أكثر مما توقعت ،اعتقدت أن القوة التي بداخلي تكفي لإضاءتي لسنوات .

_ وأن تملأ الغياب وتنبت الأمل من العدم...

بدأت الآن رحلة الألف عام و ستبدأ المائة عام من العزلة..

_ دخل القدر بمحض إرادته وبإذن تشوبه الكثير من الشبهات من الحياة والصدف...

استضفته كما لم أفعل من قبل ...

ولأول مرة كنت لا أريد أن أفعل ما فعلت...

هممت بالرفض ...لكن ليس من عاداتنا رد الضيف ..

والإشاحة بوجوهنا عن المتسولين سواء كانوا صادقين أم كاذبين..

_ أخيرا أعطيت للقدر رقم هاتفي ..

سمحت له أن يحمل اسما مذكرا ....وأن أنام على قصص تحمل الكثير من لمسات اللامبالاة ..والقسوة

بدأت أنتبه أن أنوثتي المبالغ فيها ستصيبني بالجنون والفشل

بدوت كلاعب مباراة يخشى صفارة الانطلاق ...يخاف عندما تختلط

الأوراق....

_ أسوء ما نخافه أن نتعرض لهجوم حلم مزعج ونستيقظ ...

مفزوعين نتعوذ ونستجير بتحريك أطرافنا وننظر يمنة ويسرة ..

كي نطمئن للأحلام ...للتلاشي.

...كانت

تشبه السيدة "زليخة" ، ثيابها البيضاء ،صبرها ،استنادها إلى حيطان المسجد

وسكونه جميل جدا..

_ سألتها ولم أكن في الحقيقة أسأل بل كنت أرتاح إلى جانبها ....

وأمارس عبادة الصمت في حضرتها ....

لم أعرف إلى أي اتجاه سأذهب ....حتى قطع صوتها الخافت هدوئي

قائلة: لا يمكن لأحد خذلانك إلا بإرادتك ...والكل سيؤذيك لكن اختاري من

يستحق أن تعاني لأجله ...

_ لقد أخافتني في بادئ الأمر ...لكنها تخرجت من مدرسة الحياة بشيء من الوقار والصمت الذي لا يمكن فهمه أبدا...

_ كافحت هذه المرأة ، أصبحت أسأل نفسي ، لم لا أسألها عن ماضيها لم لا أسألها عمن علمها الاستناد إلى الصبر ، إنها تمتلك قوة تجعلها لا تستند إلى أحد....

_ انصرفت في ذلك المساء بعد أن ودعتها وهي التي تأبى أن تغادر مكانها ...تحب المسجد كثيرا ..ولا تفضل الحديث عن حياتها أبدا.

_ اعتقدت لأول وهلة ، عندما التقيتها أنها امرأة مريضة ، أنها فاقدة للذاكرة ، أو ما شابه أو أنه لا عائلة لها ..

عدت إلى بيتي وتبنيت فكرة البحث في حياة هذه السيدة ...

ـ لم أتذكر شيئا من الليلة الماضية سوى أنني نمت بملابس الصلاة واكتفيت بالنوم متوسدة دفء السيدة التي أعرفها ولا أعرفها في آن واحد.

ـ لم أتناول شيئا ...خرجت من البيت ولا أرغب في مقابلة أي أحد ولا أن يعترض أحد طريقي كي لا أتأخر في الذهاب إليها ، لم أجدها في زاويتها كعادتها ....

ـ سألني شيخ اعتاد أن يجلس هو الآخر في المسجد لقراءة القرآن ويصلي ومن ثمة ينصرف ...

ألني إن كنت أبحث عن شيء ، وجودي في المحراب أجابه وقال : السيدة عائشة إنها بالمشفى ...تعرضت لوعكة صحية البارحة ونقلها القيمون على المسجد إلى المستشفى....

_ تمنى لها الشفاء ودعا لها ...

أسرعت نحو المستشفى بحثت في أروقته حتى وجدتها ....

كانت شبه مستيقظة ...اقتربت منها ...وضعت يدي على يدها وقبلت جبينها

...

_ وهمست لها : صباح الــورد.....كيف حالك ؟

وما الــذي حدث ..؟

_ انتظرت إجابة منها ...همت بالحديث لكن سرعان ما وقفت الطبيبة

بجانبي ....وسألتني من أكون ....

أخبرتها أنني ابنتها ...ضغطت السيدة عائشة على يدي بقوة ..

وأمسكتها بشدة .

_ بدت علامات الحيرة على وجه الطبيبة ...

تمتمت ...هل للسيدة عائشة أبناء ؟ لم أكن أعلم بهذا الأمر من قبل ؟

_ قاطعت تمتمتها السيدة عائشة ....لا عليك بسمة إنها بمثابة إبنة لي ..أحتاج أن أرتاح قليلا ...

أحسست أنني على ثقيلة عليها ...وربما أحست أنني مصدر تهديد أو خطر ...

_ عائشة مثال لوطن لا يرعى سوى حاشيته ولا يعترف إلا بعرافيه

يجوز لكل واحد منا أن يضع ملاحظة صغيرة ببطاقة التعريف الوطنية أو جواز سفره ....

"إنها لفاجعة أن يحدثوك أن الكل في هذا الوطن سواسية كأسنان المشط ،ثم تكتشف أن الوطن بالأساس أصلع" _أدهم اشرقاوي_

_ خرجت وغير بعيد عن غرفة السيدة عائشة ...أين انفردت بطبيبتها وسألتها من تكون ..اكتفت بقول أن السيدة تعاني من مرض القلب منذ سنوات .

ومثل هذه الوعكات ليست جديدة ...كثيرا ما تمر بها عائشة .

_ إنها تأتي لأكثر من مرة تجري فحصا للقلب وأجريه لها مجانا...

_ أدركت للحظة أن الطبيبة "بسمة " تعرفها جيدا ..

قبل أن أخرج من الغرفة كانت السيدة عائشة قد طلبت مني أن لا أتدخل بها كثيرا

..

أن لا أرهق نفسي بمساعدتها ...قالت : إنني أشبه "برومثيوس " كثيرا

حيث ظل يعاقب ويجلد ويأكل الرخ منه حتى مات .

_ لم أفهم شيئا أخذت تبسط ...قالت أن "برومثيوس" نصف آلهة ...

في يوم من الأيام اكتشفت الآلهة اكتشافا عظيما وهو "النار"

لكن هذا الاكتشاف حكرا على الآلهة فقط ولا يجب أن يمسه البشر

_ الحياة هناك كانت عبارة عن آلهة وأنصاف آلهة وبشر ...

كما أنه محرم على البشر أن تستعمل النار ...

لكن "برومثيوس" سرق النار من المعبد ...ووضعها بصحن من نحاس

وأخبر البشر أنه من يريد أخذ قبس من النار عليه أن يأتي بصحنه ويأخذ النار

_ لأن النار المقدسة لا تنطفىء أبدا ....

فعلمت الآلهة فعاقبته على ذلك ، وقيدته بالسلاسل بين جبلين وسلطت عليه طائرا يأكل من كبده وظل يتعذب حتى أتى فارسا وخلصه من عذابه.

_ لم أفهم ...يا سيدتي الجميلة إنها أسطورة جميلة لكن ما علاقتك بها ، لم تنطق بكلمة ...عوضت عنها الدموع الجمل والكلمات ،اكتفت بقول :وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

_ غطى البلل وجهي ..تلمسته وإذ بي أجدني أشاطر السيدة عائشة الدموع دون إذن مني ..

أحسست أنها تخفي جنازة عظيمة بداخلها ...تقيم مآتم لوحدها ...

إنها تعلم أن حالنا اليوم لا يحتاج للمعزين بل لم يعد أحد يتقن واجب العزاء.

حان وقت خروجي من المستشفى ، تركتها لترتاح حتى أزورها غدا بإذن الله ...

_ سألتها قبل خروجي إن كانت تحتاج شيئا ...

أومأت برأسها أنها لا تريد شيئا سوى أن أصل إلى بيتي سالمة .

غادرت ولم أتمكن من اكتشاف ما تخفيه السيدة عائشة ،وما الذي تعانيه،فلا شيء يجعل الإنسان حكيما سوى التجارب والألم والكثير من الصفعات والخذلان ...ولا شيء يجعله قويا سوى كثرة التناسي والنسيان ...

أتممت الوضوء وأنا أركز على خطواته جيدا ،لأن ذهني مشتت..مازال مشغولا بها ،أحسست أن هناك رابط بيننا ، إن الله لا يجعل الأشياء محض قدر أو مصادفة ...

إنه يخطط لنا مواعيد دون سابق إنذار حتى يحقق حكمة ودرسا أو حادثة كانت قد كتبت في الصحف وجفت أقلامها منذ زمن بعيد..

لست أدري لكن أحس أنني أحتاجها ربما كي أرأب صدعا بداخلي أو أتجاوز صدمة ما أو ألتقي بقدر مختلف..

أعتقد أنها تحتاجني أيضا كي تكمل ما تبقى لها من حياتها ،كي تؤمن من جديد أن الحياة لا تزال بخير .

أتممت الصلاة ،جلست وخيالها أمامي مرة أخرى ...

الألم الذي ظهر في عينيها ،فجأة بالمستشفى لا يمكن تجاوزه وتجاهله بسهولة ...

أخذت بالتفكير المعمق بها حتى أخذني النوم بعيدا ...

استيقظت كعادتي , كنت متعبة جدا ..أحسس بألم شديد بمعدتي على العادة تؤلمني بهذا الشكل عندما يؤرقني التفكير بأمر معين والقلق حيال شيء ما والغموض الذي يلف السيدة عائشة وتفكيري المفرط بها كفيل أن يوقظ مثل هذا الألم..

قررت أن أحمل بعض الروايات والكتب المفيدة إلى السيدة عائشة تهيأ لي أنها تحب الكتب والقراءة أكثر من أي شيء آخر ،لأنها ببساطة تتحدث بأسلوب أنيق جدا يحتاج ثقافة واسعة وصبرا كبيرا على قراءة كتاب ..

لا أعرف ما تقرأ تحديدا ، لكن يبدو أنها تقرأ كتب الدين كثيرا ، لأن مصحفها تقول الطبيبة بسمة أنه أقرب الأصدقاء إليها ، اشتريت لها أيضا بعض الثياب الجميلة وسجادة أنيقة تليق بجلوسها عند مقابلة الله تعالى ..في صلاتها..

دخلت المستشفى ..وجدت الطبيبة "بسمة " عندها تهيؤها للخروج من المستشفى لأن عائشة قد تماثلت للشفاء ...اتصلت بسيارة الأجرة وطلبت منه أن يحضر للمستشفى بسرعة لأنها لا تطيق الوقوف كثيرا كما أنها لا تحب المكوث بالمستشفى تقول .

شيء ما أزال القليل من قلقي حولها ...إنها الفرحة التي ترجمتها عيناها بكثير من كلام الود والشكر ...بزيارتي لها واهتمامي بها

إنها تشكرني كثيرا وتدعو الله لي كثيرا ، اعتقدت لوهلة أنني حلمها المنشود أو الشيء الذي تمنت أن تلتقي به بعد سنوات عجاف بعد أن تحولت أرضها إلى يباب لا يسكنه سوى الألم والصمت.

أمسكت "بسمة " يدي بقوة وهمست في أذني ، إنك ما تحتاجه السيدة عائشة كي تحيا من جديد وتتعافى روحها المتعبة منذ سنوات ...

لكن كل ما تحدثت هذه الطبيبة كلما أدخلتني دوامة مرة أخرى ،إنها تعرف هذه السيدة جيدا ...لكنها لا تحبذ الإفصاح .

طمأنتها أن لا تخاف ...ستكون السيدة عائشة أمانة عندي..

سألتني كيف تعرفت إلى إلى عائشة ..أجبتها بسطحية مع كثير من الغموض والتحفظ نفسه الذي تحييني به.

ربما يلقي الله لنا بدروس بآمال ..بتعويض ...بثواب فتأتي كلها أحيانا على هيئة صدف ،بشر وأخرى قدر....

هممت بالخروج رفقتها من المستشفى ، سألتها إن كانت توافق على الذهاب معي إلى البيت ...أين سأعتني بها بشكل أفضل...لكنها رفضت وأبت بشدة ...وإلحاحي عليها لن يغير شيئا.

نزلنا عند باب المسجد ،توجهت عائشة إلى حجرتها وهي بيت صغير أو بالأحرى ملحق بالمسجد ، أبديت استغرابا كبيرا عندما رأيته تسكن هناك ...

بدا عليها الشوق الشديد لحجرتها كيف لا وهي تسكن ببيت الله ،دخلت معها بعد طلب منها ...قدمت لها ما أحضرته من أشياء

كانت سعيدة جدا فأحسست بسعادة مضاعفة فكما قال صلى الله عليه وسلم :

لا شيء أفضل من عمل تدخل به السرور على قلب مسلم..

أحضرت لها الكتب لمحت إحداها وكانت رواية ...

ما إن رأتها حتى انزعجت وطلبت مني الانصراف ....

بحجة أنها متعبة فقط ولا تريد سوى الجلوس بمفردها ...

غادرت الحجرة بروية ...لازلت أريد الاطمئنان عليها ...كانت صدمة كبيرة جدا بالنسبة لي لم أرغب يوما بإزعاج أحد ،وخاصة امرأة مسنة مثلها ...

هي أيام طويلة مضت ولم أتفقد السيدة عائشة ،حزني بدأ يتراكم ، والألم يكبر ...

وتفكيري متعب جدا ...لدرجة أصبحت أتوق لأحد يرتب معي فوضى أفكاري .

أشبه أمي كثيرا أفكر كثيرا ...في كل شيء ولا أمنح عقلي فسحة أو إجازة ولو لثواني ...

أصبحت أدون كل ما أفعله وما أقوم به كي لا تختلط لدي الأمور أكثر ..قررت أن أذهب إليها ، و أواجه الأمر ، سأرى ما ستقول عائشة ...وكيف ستكون ردة فعلها عند رؤيتي .

توجهت صوب المسجد بحثت عنها ، وجدتها تتوضأ ،تقدمت نحوها ألقيت السلام ، التفتت ببطء كانت هادئة جدا ..بدت السعادة على وجهها ... لكنها ممزوجة بشيء من الزعل ..أخذتني في حضنها لأني ألقيت السلام من بعيد ...خفت أن تستاء إذا اقتربت منها أكثر خاصة أننا عندما افترقنا آخر مرة لم نكن على ما يرام.

وبختني عن الغياب الطويل ...أخبرتها أن العمل كثير والوقت ضيق جدا ...كما أني تركتها بمفردها لترتاح .

أردت أن نتحدث ...لكنها فضلت الصلاة أولا ...

تهيأت لتصلي صلاة الضحى تقول أنها تحبها كثيرا فهي صلاة الأوابين ، تذكرت أن أمي أيضا تحب هذه الصلاة كثيرا ...وتحافظ عليها بكل ما استطاعت ... نظرت إلي نظرة تأسف واعتذار وطلبت مني الجلوس ريثما تنهي الصلاة ...شرعت في صلاتها أصابتني بالغيرة وهي تسجد وتركع كم أنيقة ، كم كانت جميلة ومتطيبة، كم كان نظرها خاشعا بالصلاة ...كيف كانت منسجمة حركاتها.

يا الله إنها تتزين للصلاة وتصلي بهدوء وتلتصق بآخر ركعة كأنها لا تحبذ توديع الركعات ، كم تليق بها الصلاة ، كم هو جميل هدوءها مع الله...
أحببتها في تلك اللحظة كثيرا ...تمنيت أن أطلب منها أن تعلمني كيف أقابل الله...كيف أتجمل عند الصلاة ... كيف تهدأ روحي كيف أستحي في حضرة الإله.

بدأت عائشة بالسؤال عن أحوالي وأخذت تجمع أجوبة شخصية ، كنت أجيبها بأمان تام ...لأنه من يتأدب مع الله بتلك الطريقة يستحيل أن تخشاه أو تتوقع منه أذى ...
استرسلت في الحديث و كأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد ،أعجبني إسقاطها للمسافات التي كانت بيننا ..

أخبرتني عبارة واحدة في الأخير أعادتني إلى وعيي لأني كنت قد سافرت بعيدا أفكر بها وبحياتها ..وكيف سأجيب عن الحيرة التي تنتابني كلما ألتقيها ، قالت : أخطر ديانة هي الأحلام وأبعد السموات ارتفاعا وأعمق أماكن الحياة .. إن فسدت النية بطل الحلم ...

لم أستمع لبقية حديثها ...كنت أتمتع بهدوء تفاصيلها و طريقة كلامها ...عيونها تحمل لون حلم أرهقته الحياة بالتدوير والدحرجة يمنة ويسرة حتى أردته أشلاء لا تصلح لشيء سوى أن تضمها صناديق القمامة علها تكون يوما ملكا لعابر سبيل يواري بها سوءته ...

أنا أيضا سأخبرك سرا ، كنت أتوق أن يكون لي جد أو جدة أجلس برفقته وأكتشف الحياة عن طريقه و أنظر بمنظار الكبار كي لا أخطئ كثيرا ...

وقفت لتعد لي كوبا من شاي ، أشفقت عليها لأنها كبيرة ولا زالت مريضة ولأن مساحة إعداد القهوة لا تتجاوز بضع سنتمرات ،بدت رائحة قهوتها كرائحة المسك،سألتني إن كنت أفضلها حلوة أم مرة إني أحبها على حد قول محمود درويش:"كيف للقهوة أن تكون مرة وقد أعدتها امرأة من سكر "

قهوتي على العادة مرة ...لكنها لن تكون كذلك بما أنك أنت من يعدها ، ابتسمت...

تسألني الآن وأنت تتبع خطى كلماتي خطوة خطوة ، همك أن تفهم ما يدور برأسي ، هل عائشة هي فضائي الوحيد ؟

إنها كل أعمالي ، كل أيامي ، لأن تفاصيل حياتي ليست جديرة بالذكر..

كانت تتلمس حواف الصينية ببطء وبروية كأنها تلمس احد ذكرياتها ..

تتوه مجددا....

أقاطع صمتها ، خالتي عائشة لنذهب خارجا قليلا ..

كانت تفضل مكانا أفلاطونيا ،أخذتها إلى ساحة التماثيل قرب برج الساعة القديم ..

مكان هادىء لا يرحب كثيرا بالضجيج...

جلست بجانبي وقالت: إنك فتاة حالمة وقوية ، لكني أخشى عليك من الاستسلام يوما ، لأن القوي نهايته تختلف دوما عن البقية .

تذكرت شيئا لكمال قرور شيئا أخافني عندما قرأته وأنا بصدد تحضير مذكرة التخرج ...

كتب كمال شيئا ،قال ؛"هناك من يبدأ حياته ملكا وينهيها كبائع هوى"

كم مخيف هذا الكلام ...

أعجبني عالمها الذي لا يخلو من الجمال ؛ إنها تعرفه هي الأخرى كمال إنها تحتفظ بالكثير من العناوين والمؤلفين ؛ربما بدأت معرفتي بها تكبر منذ الآن .

تقول: إن الضعيف يمرض فيسقط فيرتاح بسقوطه لدهر في الفراش ويشفى ثم يعاود الكرة وهكذا حتى يستهلك الحياة أو تستهلكه ؛ أما القوي الذي لا يستسلم ؛ يوشك على السقوط والانهيار فيمسك بعضه بعضا مثل الورق يستند ضعفه إلى ضعف فيصنع قوة تكافح ما استطاعت ؛حتى إذا هبت عليها ريح ليس له عليها سلطان هوى وسقط وإذا هوى ومرض فإنه يموت ولن يرتاح على فراش المرض ولو لثانية ...

تحاول في كل مرة أن تلمح لي لكن أسلوبها معقد نوعا ما يزيد من تضليلي..

إنها تضع عالما تعيش به وحدها وتحرم على الآخرين دخوله؛قاربت الساعة السادسة مساء إنه فصل الصيف...

لكن بالنسبة إلى امرأتين لقد تأخر الوقت ونحن لا نزال خارجا أمسكت يدي وقالت: أكبر ما كان يضجرني هو كوني أنثى ....

ذكرتني بفضيلة فاروق ....إنها تجيد إختيار كلامها وأفكارها كما أجيد أنا اختيار ما أقرأ ...

سألتني ماذا كنت لأفعل لو كنت رجلا ؟

توقعت مني جوابا مستحيلا ....شيئا كبيرا ...فكانت الإجابة بسيطة على قدر بساطة أمنيتي ؛ وسني ...أن أمشي لوحدي ليلا ؛ و أن أسافر بمفردي دون حزام ذكوري يخنق أنفاسي ويقلل من سرعة انطلاقي ...ويصدر لي عقوبات عن تجاوزاتي وحريتي واختياراتي.

لقد أحزنتني ...إنها تشبهني ...إنها نفس نقاط التوازي والتقاطع..

صرت أرتاح لها أكثر من ذي قبل..

أضحت تتحدث ...تتكلم بقليل من التحفظ ؛طلقت الصمت قليلا .

لا زالت تمشي وتغض بصرها وتصون روحها وتذكر الله دوما .

مرت أيام كثيرة وثقيلة ....

تغيبت عن السيدة عائشة كثيرا ؛ إنه الغياب نفسه أصبحت أعاني معه ؛ ظروف العمل لا تترك لي الخيار والمجال بزيارتها اكتفيت بالدعاء لها فقط.

كنت سأسافر خارج البلد لمدة تزيد عن الأسبوع كان لدي عمل .

قررت أن أذهب عندها كي أطمئن عليها قبل مغادرتي .

لم تتغير تفاصيل أيامها أبدا ؛سوى أن أحدهم قد زارها بغيابي ولكن لم تخبرني من يكون أو من تكون لكن يبدو من ملابس كان قد خلفها وراءه أنه شيخ كبير ؛ ترك عمامة بنية اللون ؛فوق الطاولة يتضح لي أنه نسيها أو تعمد نسيانها ؛كي تلتحفها في غيابه ...

لعله قريب منها لدرجة أنني لمحت بعض الصور في يدها ؛وهي بالكاد تسترجع أنفاسها ...

عدت أدراجي إليها ...

لكن من أخبرك أنني مريضة ...ما كل الأدوية التي تحملينها بحقيبتك؟

و ما كل تلك الأوراق ؟

لقد كانت تدقق في تصرفاتي ؛كيف كانت تراقب الوقت ...الحديث وكل ما من شأنه أن يلفت النظر ....

تعلمت السيدة عائشة من الحياة كثيرا ؛لا بأس سأذهب ؛شكرا لك على اهتمامك.

برغم ما تحمله من معاناة لم تفلت شيئا من تصرفاتي وسلوكاتي .

لقد سافرت ...لأيام قليلة فقط كانت لأجل العلاج وليست للعمل كما أخبرت الجميع ...

إنه ليس بالشيء الخطير ؛ لكنني لا أثق كثيرا في التشخيص ببلدي لأن كل شيء به غير موثوق ....

حاولت استغلال فترة العلاج ومكوثي خارج البلد قليلا ....

تمشيت ...تجولت ...أحمل كل يوم الكثير من الهواء والأفكار النقية بداخلي لكن دون جدوى لم أكن لأستمتع لأنني اعتدت على تواجد السيدة عائشة معي .... إنها تحتل تفكيري و أخاف عليها كثيرا ...

كنت سعيدة كلما مر اليوم بسرعة كي أعود أدراجي ...اشتقت لأبي وأمي و أسرتي أجمع ...لا أخفي أنني أيضا اشتقت إلى السيدة عائشة جدا ...

أخيرا ..أنا بمنزلي المكان الذي لا أرتاح لغيره مكان أبدا ..

كنت متوقة ....بالضيوف ...وكل من يهمه أمري ... لم أتمكن من زيارة عائشة لحد الآن ....

قررت أن أزورها .....

كأني لم أغادر أبدا ؛بدأت السيدة عائشة بالسؤال عن أحوالي كعادتها ؛ تفحصني بعينيها حتى تتأكد أنني بخير....

ذكرتني فجأة بالليلة التي التقيتها فيها ، كانت الليلة الأخيرة من رمضان ؛ أين تحدثت إليها ؛ وكانت قد أنهت صلاتها ؛كانت تصلي بجانبي ...كنت كلما أهم بالسجود سمعت لها دموعا وشهيق طويل ..

كانت تدعو كثيرا ، وما إن ترفع رأسها من الصلاة حتى تشرع في تورية دموعها عن المصلين ...

يا الله لقد أصبت بالغيرة ...إنها تجيد التضرع لله ...تتقن الخشوع وتصلي كما تمنيت أن أصلي يوما .

كانت صلواتنا تتشابه إلا صلاتها ...فن من نوع آخر ...

إنها تؤديها على النحو الذي نطمح له جميعا.

فالكل فاشل بالخشوع ...في تلك اللحظة وضعت يدها على ركبتي ؛وأنا لازلت جاثية لم أبرح مكاني أبدا ...

وهي لا تعرفني ولا أعرفها ...طمأنتني وقالت:

عندما يكون العبد في حضرة الله عزوجل يحق له ان يطلق العالم وما حوله بالثلاث ...

وتأسفت إن كانت قد أزعجتني بالدموع و الشهيق والتضرع أثناء صلاتها ...في الحقيقة لا يحق لها أن تظن أن هذا إزعاجا لأنها علمتني كيف أحب الصلاة ... علمتني كيف أتجاهل العالم في سبيل إقام الصلاة ..

وبدأ لقائي منذ ذلك الحين يتكرر في المسجد عندما أتوجه لتأدية صلاة التراويح.

كنت أطوي الأرض طيا ؛ وأسرع كي اضمن مكانا إلى جانبها ..

لازمتها تحدثت إليها أكثر من مرة حتى صدمتني أنها تقيم بالمسجد.

يخرج كل المصلين عند إنتهاء الصلاة إلا السيدة عائشة ...

أتوقف لدقيقتين ...سيصمت القلم ..وينصت لآذان العشاء ...

هل يمكن أن تكون قويا دون أن تستند إلى الله....

لوتراها وهي تؤدي صلاتها وهي تسأل الله وهي تحاوره ؛ إنها تخاطبه كأنها تراه .

تبدو امرأة من حديد عندما تتوكأ على الله ..

إذا جلست إلى السيدة عائشة ستدرك في الحين:

أن تتعلم أن تدرك أن وجود الناس يعمل عمل المنكهات وجوده يضفي طعما جميلا وغيابه لا يخل بالمذاق.

جميل أن تكبر بالصمت و أن تتجمل بحسن الظن والإحسان.

لقد أصبحت تسألني وتلح أن أواصل دراستي ؛ لم أعتمد مبدأ المماثلة معها ...كنت أخبرها كل شيء عني ..

أصبحت أحس شيخوخة مبكرة جدا أحيانا أتخيل علاماتها وملامحها بوجهي ، بدأت نفسي وروحي تتعلم لغة المسنين فعلا.

أقول تعبت ...

لقد مازال الوقت مبكرا جدا.....

أن أسأم ...أن أنتظر مرحلة أمثل فيها دور الجدة ...

و أحكي لأحفادي و أكتفي بالسرد المطول لهم ...

شيء لا يبعث على الشهية للحياة.

مازالت بعيدة على حد قول السيدة عائشة ؛يجب أن أصنع الكثير؛ أن أعيش وأحلم بما يكفي كي أترك لأولادي و أحفادي ؛ إرثا وكفاحا ستندون إليهم و يقتاتون على بقاياه ؛ إن تركها الزمن ، ويحتفظون به في صناديقهم .

أعدت التفكير مجددا بشأن الأحلام والطموحات أعدت شريط الحياة من أوله ؛ إنها ليست الحياة التي خططت كي أحياها ؛ أدركت أن هناك عدة طرق لإثبات الذات .

أحسست أنني امتداد للسيدة عائشة ؛لا يجمع القدر فقط بين المرأة و الرجل؛ ليس الزواج وحده من يكمل الواحد فيه الآخر كما كان أيام زمان.
بل هناك صدف تجمعنا بشيء انزلق منا منذ دهر بعيد ؛ ونحن في غفلة من أمرنا .
لقد دفعتني هذه السيدة الجميلة كي أبحث عن شيء كنت أخافه جدا ؛ ولا أجيد الهروب من شيء بقدر ما أجيد الهروب منه ؛ أي من مواجهة ذاتي ؛ لم أجرب أن أستمع إليها من قبل ؛ لم أفكر بالحديث معها أبدا ....

عندما رمت عائشة ورقة قد تسللت خارج الحقيبة ولم ألاحظ سقوطها ؛ولم تلاحظ هي الأخرى ذلك إلا بعد خروجي أين التقطتها ؛ أحترم فضولها جدا؛ وتعجبني كثيرا عندما تؤمن أن المبادىء مقدسة لا القوانين كما يقال.

أي أنها لم تشعر بالذنب لما همت بقراءتها ؛ دون إذني لأنها تعلم من تكون وتعلم من أكون.

جميل هو شعورها بالعفوية والثقة التامة ؛ عندما تتخطى حدود الاستئذان والرسميات عندما تدرك بمنزلتك عند الآخر.

الورقة سمحت لها بالتجول في سراديب حياتي قليلا...

لا يمكن أن تقرأ السيدة عائشة الورقة وحدها ؛ أنت أيضا لك الحق في ذلك ؛ تفضل إقرأ ما جاء فيها :

عفوا لكل من اقترضت منهم أسئلة و سرقت تفاصيل حياتهم واتهمتهم صدقا وصراحة ...ولم أدفع لهم ؛ أعتذر لكل من أخطأ قراءة البداية ...

سقطت البراءة بينما كنا نتحدث ؛

ونمضغ الصمت ونرميه يمنة ويسرة ...

لم أنتبه لما سقط مني ..أخذت بعض الأسرار مني ؛

أسرار تجعلك تجيد كيف تسرق طفلة ..

و أنا أبتعد...ألتقط أنفاسي من جديد ..

أيقنت أنني أسقطت شيئا يخصني ..

كانت روحك دائما على الخط مرتجفة ؛ لم تقفل السماعة

يوما ؛

تتجسس على دقات قلبي وأرقام هواتفي ...

فكرت أن أعود أدراجي و أسألك الأمانة التي سقطت

أنت تعلم أن الله يأمرنا أن نرد الأمانات إلى أهلها

يمكنك ان ترجع إلي براءتي ببساطة ؛ كما رفعتها عن الأرض

عندما سقطت خلسة دون أن ألاحظها ..كي نتعادل ونتصافح

...صمتك ...بائع سحرممتاز..

يصنع من الوهم حمائم ويصنع من الريح صنوبر ..

ويخدع العيون ..

لكن الصنوبر يدرك قذارة ما تفعل ...إن الريح ذئب ..أيها الحطاب

لم أتعلم شيئا سيدتي ..سوى أن البراءة نوعان ..براءة تولد مع الإنسان وأخرى

تشبه أضواء الشمال .

تفهم جيدا السيدة عائشة كل ما يتعلق بالإنسان وتحايل الحياة ومسائل النصب

والاحتيال وصفعات القدر .

تغيرت قليلا بعد قراءتها للورقة رغم أنها لم تسألني حولها أبدا، أخفت حدتها قليلا وزاد غموضها ؛ الآن تريدني أن أصبح أفضل كأنها تضع ذاتها داخلي ؛كأنها تأمل بي كثيرا لتستدرك شيئا ما فاتها .

للورقة مفعول كبير جدا ...

بدأت تعتاد وتستسيغ وجود الكثير من الأسئلة حولها ؛ سأترك الأوراق عمدا و أتمسك بهذه العادة كي تتغير ، كي تصبح أفضل مما هي عليه الآن ..أن أطبق ما تقول وأحقق ما تأمله بي.

صدمتني في ليلة أتيت كي أبيت عندها لأنها تعبت قليلا ؛ قلبها الضعيف يذكرها بالألم من حين لآخر..

إنها تريدني أن أصبح كاتبة ...أن أكتب كما لو لم يكتب أحد إطلاقا ؛كأنه لا يوجد نقاد على وجه الأرض أبدا ...

ليس من السهل أن تطوع القلم والزمن والورق أيضا ...

إنها جهاد الذات والأفكار إنه أعظم من جهاد النفس أحيانا.

تقول أنها ترتاح لي وأمي أيضا ؛إنها ممتنة لاهتمامي بها ؛ممتنة لأني لم أتدخل بشؤونها الخاصة ؛ واتبعت وصيته صلى الله عليه وسلم في ترك ما لا يعنيني لأنه من حسن إسلام المرء ؛لقد علمتني أمي أن لا أنبش بحياة الآخرين ؛ وأن أبدي أسفا إن حدثتهم عن شيء ذكرهم بمأساة أو فقد ..عن غير قصد طبعا ؛تعجبني هذه التصرفات ...في الغرب المتحضر كثيرا

إنه يتأسف إذا ذكرك بشيء مؤلم أو بفقدان أحدهم ...الأمر الذي يفتقر إليه شرقنا المفلس.

رغم إسلامه إلا أنه يصنع لك الألم ويتلذذ به ويحفظ عيبك ولو فاحت منه رائحة العفونة فثلاجة الستر لدينا معطلة ولا تعمل مطلقا

ببساطة نحن متخلفون ...

كيف لنا أن نتحدث باسم العلم والحضارة وأن نفكر بالجلوس بين المتحضرين والمثقفين...

وأن نفكر بضم صوتنا إلى العالم رغم أننا جزء منه جغرافيا إلا أننا غير موجودين على خريطة الوجود الحضاري أصلا ...

ماذا ننتظر من مجتمع يرى أن الزواج ضرورة دينية

من لم يأتي بها فله حمل بعير ...

ويرفع يديه إلى السماء وكل ما يأكل ويلبس من الحرام ..

فأنى يحيا مجتمع كهذا ؟

تحضرني هذه القصة بما أنني أخجل من مجتمعي وانتمائي إليه

كنت أتجول والسيدة عائشة في مدينة الجزائر مررنا بالكنيسة ؛كانت المكان الوحيد الذي أحب زيارته ؛هممت بالدخول إليها أمسكت امرأة بيدي وقالت : أنا مجرد ناصحة ، هل انقرضت أماكن السياحة حتى تتوجهي نحو الكنيسة برفقة عجوز مسنة ترهقينها مشيا ..؟

إنه لحرام عليك ..إنه مكان يشرك فيه بالله عزوجل ...

لم أفهم سيدتي ...فارقتنا وقد رمقت السيدة عائشة بنظرة تحبس الأنفاس ...

تسمرت مكاني ...كم أردت أن أرد ..أن أجيب تلك السيدة ...

أمسكت عائشة بيدي وكانت هادئة لدرجة لا توصف ؛اتجهنا نحو الكنيسة ..ونحن نتمشى قالت عائشة :

سلام على أمة ألسنتها مساجد وقلوبها معابد يهودية .

كيف لها أن تكون بهذا البرود والتحكم في الأعصاب ؛بدأنا بالتجول داخلها روت لي قصة الكنيسة بشيء من الطمأنينة الساحرة ؛إنها السيدة الإفريقية ؛تقول أن هناك الكثير من الروايات حولها ستروي الأصح على الأرجح ..

لما استدعى القس "بافي" من مدينة "ليون" ليعين أسقف للجزائر عام 1836م ؛ اصطحب معه عاملتين فقيرتين وهبتا نفسيهما لخدمة النصرانية وهما "مارغريت بيرجرا" و"آنا سانكان" ؛ كانت همة

مارغريت تفوق همم كثير من الرجال كافحت لتنشر دينها في القارة الإفريقية كلها

بدا للأسقف الجديد أن يستقر بمنطقة الزغارة وينشيء لها ديرا لكن ضاق صدر مارغريت أن لا يكون في الجزائر كنيسة للعذراء ؛فراحت تصر على الأسقف ليلا ونهار أن يشيد للعذراء معبدا في هذه البلاد ولتخفف من نهمها الشركية ولشدة كلفها برؤية أصنام للعذراء ؛في مكان منقطع يسمى "الكهف" وسمت هذا المعبد الذي يكون أصلا السيدة الإفريقية بمعنى "سيدة الكهف".

وفي الأخير استجاب الأسقف لطلب مارغريت ولم يجد أفضل من المكان الذي توجد فيه الكنيسة اليوم ؛حتما إنه اشتراه بثمن عظيم ؛وغرضه أن يراها الداخل إلى الجزائر من البحر و أن تحمي حسب معتقدهم الفاسد النصارى الذين يبحرون وكان الشروع في بنائها يوم 1855/10/14.

انتهت جولتنا لم أكن لأحس بها لأن قصة الكنيسة من أجمل ما استمعت إليه يوما .

لم تنتهي القصة إلى هنا تقول السيدة عائشة ...

إذا أكملي من فضلك ...قالت ساهم الكثير من نصارى العالم في بناء الكنيسة ثم وصل أخيرا تمثال السيدة الإفريقية .

بينما تروي قصتها لاحظت أنها تراقب حركات القس خلفنا ،كانت أول مرة تزور بها كنيسة السيدة الإفريقية ؛بدا أن هناك شيء يزعج السيدة عائشة ....

من الصعب أن تقنع العالم أنه لا وجود لتنين نعيش على ظهره وكلما تقلب تعاقب الليل والنهار .

يبدو من حركات القس أنه يتقن العربية فهما وكلاما ...كان ينصت لحديثنا بينما كنا نجوب الكنيسة ؛استمع لقصة الكنيسة سعد كثيرا وبدت علامات السعادة واضحة على وجهه.

لقد سعد القس لما تيقن أن انجازاتهم محط اهتمامنا وتاريخهم يهمنا أكثر من تاريخ الثورة الجزائرية وثورة أول نوفمبر .

تطرح عليك عائشة سؤالا تجعلك ترى نفسك بقصر ممرد من قوارير كلما تقلبت ناحية الشمال والجنوب لا تجد سوى انعكاسا لنفس السؤال لماذا يحق للغرب الاستشراق بينما لا يحق للعرب الاغتراب؟

سؤالها صعب بعض الشيء لا يمكن التفكير فيه على مدى سنوات؛ غادرنا الكنيسة نحو مكان يمكن أن نتناقش فيه بشكل أفضل ؛ما الذي تقصدين بشرق مُغرب :

قالت : نتعامل بخوف وبعقد ،بخلفيات مع كل من نتخالف ونختلف معه في الدين والديانة أو حتى الفكرة ؛نعاني مرضا حضاريا وفكريا ورثناه من أيام الثورة الفرنسية.

لم تمنحنا أوروبا سوى لعنة أمون التي تسير معنا أينما نسير ؛لا نملك أيضا تأشيرة السياحة وخاصة سياحة الآخر بالحارات والمدارس

يخيفنا التاريخ أكثر مما تخيفنا السياسة وشؤون البلاد.

أجابتني عائشة دون وعي منها على تدخل السيدة قبل دخولنا الكنيسة .

نصحتني أن أقرأ مقدمة "باولو كويلو" في كتابه الجاسوسة ...سألتها لم ؟

تكمن الراحة الشديدة في كلامه ؛الكتاب لا يزال حديثا بالإصدار والتنزيل ....

كيف تعرف عنه ؟

لا بأس ؛ سأقرأ المقطع الذي تريده عندما يحين ذلك.

يبدو أن عائشة تقرأ كما يقرأ الجاحظ.

تصلح أن تملي أفكارها على "جرجي زيدان" أو" كافكا "أمثالهم من كتاب الأدب الأمريكو- لاتيني علها تغير في العالم شيئا.

تعودت على طريقتها كالعادة سأفكك الكلام بنفسي و أجد ربع الإجابة الأخرى.

قررت أن أترك البحث لوقت آخر.

أتى المساء باكرا ؛كنا في طريق العودة ،أحسست اليوم أن عائشة قد حققت شيئا يسيرا كانت تتمناه منذ زمن.

بلغنا المنزل ؛ التعب شديد والإرهاق أشد ؛والأعمال متراكمة ؛ لكنه يتوجب علي أن أقرأ ؛ عائشة لا تنسى ولا تنفك تذكرني كي أقرأ؛حسنا بحثت عنه أولا ؛ الغلاف ملفت للانتباه في الحقيقة كويلو كاتب مميز ؛انطلق من فشل ذريع نحو عالمية مبهرة ..

ما إن وقعت على المقدمة حتى رأيت عائشة أمامي ؛ إنه صوتها ...

سأقرأ:

كان أحد كبار متصوفي الإسلام ؛وسوف ندعوه هنا حسن ،يحتضر عندما سأله تلميذه :

من كان معلمك أيها المعلم؟

أجاب : بل قل المئات من المعلمين ؛ و إذا كان لي أن أسميهم جميعا ؛ فسوف يستغرق ذلك شهورا وربما سنوات ؛ وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم . ولكن ألم يكن لبعضهم تأثير بك أكبر من تأثير الآخرين؟

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة ؛ ثم قال :

كان هناك ثلاثة في الواقع ؛ تعلمت منهم أمورا على جانب كبير من الأهمية.

أولهم كان لصا ؛ فقد حدث يوما أنني تهت في الصحراء ؛ ولم أتمكن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جدا من الليل ،وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت،ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة وفي النهاية صادفت رجلا طلبت

إليه المساعدة .ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

أثار الأمر إعجابي الشديد ؛ورجوته أن يعلمني كيف فعل ذلك ،فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس ،لكنني كنت شديد الامتنان له فدعوته إلى المبيت في منزلي.

مكث عندي شهرا ....كان يخرج كل ليلة وهو يقول : سأذهب إلى العمل ،أما أنت فداوم على التأمل وأكثر من الصلاة ؛وكنت دائما أسأله عندما يعود ،ما إذا كان قد غنم شيئا ،وكان جوابه يتخذ على الدوام منوالا واحدا لا يتغير ، لم أوفق في اغتنام شيء هذا المساء لكنني إن شاء الله ،سأعاود المحاولة في الغد.

كان رجلا سعيدا ؛ لم أره يوما يستسلم لليأس جراء عودته صفر اليدين من بعدها وخلال القسم الأكبر من حياتي ؛عندما كنت أحقق اتصالي بالله ؛كنت أستعيد كلمات ذلك اللص ؛ لم أوفق بشيء هذا المساء ،لكنني إذا شاء الله سأعاود المحاولة في الغد ؛كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة.

ومن كان المعلم الثاني ؟

كان كلبا ؛فقد حدث أن كنت متوجها إلى النهر لأشرب قليلا من الماء ،عندما ظهر هذا الكلب ،كان عطشا أيضا لكنه عندما اقترب من حافة النهر شاهد كلبا آخر فيه ولم يكن هذا غير انعكاسا لصورته فيه.

دب الفزع في الكلب الآخر ولكن شيئا من هذا لم يحدث بالطبع ، وفي النهاية قرر الكلب وقد غلبه الظمأ الشديد أن يواجه الوضع ؛فألقى بنفسه في النهر وكان أن اختفت الصورة هذه المرة .

توقف قليلا ، ثم تابع :

أخيرا ؛كان معلمي الثالث ولدا ،فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع حاملا شمعة بيده ؛فبادرته بالسؤال هل أضأت هذه الشمعة بنفسك ؟ فرد علي الصبي بالإيجاب ؛ولما كان يقلقني أن يلعب الأولاد بالنار ،تابعت بإلحاح ،اسمع يا صبي في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة ....أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها ؟

ضحك الصبي وأطفأ الشمعة ،ثم رد يسألني وأنت يا سيدي أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا ؟

أدركت حينها كم كنت غبيا من ذا الذي يشعل نار الحكمة ؟

و إلى أين تذهب ؟ أدركت أن الإنسان على مثال تلك الشمعة ، يحمل في قلبه النار المقدسة للحظات معينة ،ولكنه لا يعرف إطلاقا أين أشعلت وبدأت منذ ذلك الحين ،أسر بمشاعري وأفكاري لكل ما يحيط بي للسحب والأشجار والأنهار والغابات ،للرجال والنساء كان لي طوال حياتي ،الآلاف من المعلمين ويت أثق بأن النار سوف تتوهج عندما أحتاج إليها كنت تلميذ الحياة ولا أزال لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة ، من أشياء غير متوقعة مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم .

لم يؤثر بي هذا السرد الجميل وحده بل ما اعترف به باولوكويلو

قال:"لقد كانت الثقافة العربية إلى جانبي "ما أطيبه من اعتراف لم تكن زغريد هونكا وحدها من اعترفت بان شمس العرب لازالت تسطع على الغرب.

لها ذوق مميز.....

موسيقى خاصة تصطفيها عن نساء العالمين...

لم تكن تلك مقدمة فحسب بل كانت كتابا برمته ....

يختزل روعة تقبل الآخر..

أتى الصباح ...استيقظت ...لمسني الهاتف أدركت أن الكتاب جلب لي النوم ...بل نومة أهل الكهف....

العمل كثير ...ويجب أن أعوض الغياب وأعمل بدوام أكبر بوتيرة أفضل...

التعب يعض جسمي ...الإرهاق باد على وجهي .. بقايا الحبر نائمة على أطراف أناملي ...

لكن الانقطاع عن زيارة عائشة قد بلغ حده يجب أن أذهب ....أخيرا أنا أمام بيتها المتواضع ...

إنها تبدو مريضة ضعف قدميها اللتان بالكاد حملتاها كي تفتح لي الباب واضح جدا ؛صوتها مختلف جدا لكن السبب هو أنها لا تحبذ أن يكون لديها هاتف وإلا كنت اتصلت بها وسألت عن أحوالها ...

اتصلت بوالدي ...عليه أن يتقبل فكرة تأخري مساء لأن السيدة عائشة مريضة قليلا ؛لقد كان كريما جدا ...وقدم لزيارتها ...

غريب إنها تضع رأسها على صدري وتخبرني أنها تشعر بسلام داخلي ؛حضرت لها حساء وكوبا من شاي اللوتس ؛طلبت منها أن تلتحف الغطاء والاستلقاء في فراشها إلا أنها كانت مرابطة على الصلاة ؛ لا يمكنها أن تنام دون أن تؤدي صلاة العشاء ...كان جميلا انتظار الصلاة برفقتها ...

تأخر الوقت بعض الشيء ..

إنه الهاتف ...والدي ينتظر خارجا كي يصطحبني للبيت ؛ لم أكن قاسية إلى درجة أتركها فيها لوحدها و أبي أيضا لكن صعب أن تتناقش والسيدة عائشة بالقرارات والقناعات .

تصر دوما على البقاء بمفردها ..

عدت للبيت أديت صلاة العشاء ...فعائشة تصيبني بالغيرة كلما صلت أمامي ...توجهت كي أستأنس إلى الكتاب مجددا ...أعلم أن النوم يستحيل إذا فكرت بها كثيرا ...ستكون بخير ؛ الله يحميها ويحفظها .

لفرط الإنهاك نمت سريعا ....غدا لدي عمل كثير ....

بدا الصباح على غير عادته ؛إحساس يراودني أن اليوم سيكون ذكرى من معركة قديمة لازالت تدور رحاها بالماضي .

دخلت إلى الشركة ..كان هذا اليوم مبرمجا فيه أن ألتقي بالمديرة الجديدة ..والتي من المفروض أن تكون القائدة الجديدة بالمكان لم أكن أعرفها ....في أول الأمر لكن بدأ الجميع بالحديث حولها ؛ كانت أغلب الأقوال تدل على أنها إنسانة ذات أخلاق وعلى قدر من الطيبة ؛ لأنني كنت قد سمعت أحدهم يتحدث عنها بسوء في الحقيقة لم يكن شخصا أو اثنين بل معشر من الناس ،أو بالأحرى أصحاب القيل والقال.

بدأت العمل معها ....

لم أجد ما أفعل أو كيف أتصرف. ..ما علي إلا أن أنتظر العودة إلى البيت كي أخبر السيدة عائشة.

ماذا يمكن أن نسمي مجتمعنا ....

كيف لا نشعر بالعار عندما نتحدث عن الجنة ...

كيف لا نخجل عندما نصلي ...عندما نركع أو نسجد ...ونحن نعلم أننا كاذبين ؛ومنافقين وملفقين.

توجهت إليها لم أتمالك نفسي أخبرتها أنها جميلة ؛ خلوقة ....أخبرت نفسي أنها الأجمل .

كنت أضمر ترفعا في نفسي ورفعة نحوها ...

قررت أن لا أحدثها كثيرا ؛ربما لا تعلم ما يقال عنها أو تعلم لكنها قوية جدا ؛ أدركت للتو أن مجتمعا فاشلا كهذا يحارب أبناء يعقوب ويعرضهم على السيارة حتى يخلو له وجه الحياة ...

طبعا نحن وبكل فخر نحارب الناجح حتى يفشل ؛ والغرب يدعم الفاشل حتى ينجح...

الشيء الوحيد الذي لا يمكن تعلمه انتهى الدرس.

كنت متعبة جدا ومرهقة وعدت نفسي أن أرتاح عند السيدة عائشة قليلا لكن أنهكني العمل ..ويبدو أنها ليلة أخرى دونها.

أخيرا دخلت بيتي ...قضاء الصلاة أول الواجبات وبعدها يجب ترتيب زيارة لعائشة غدا أحتاج إليها كثيرا .

استلقيت وبدأت أتأمل السقف والثريا المتدلية تذكرت عند مراجعتي لأحداث اليوم قولا للدكتور مصطفى محمود ؛عندما كتب :

"إذا جاءك المهموم أنصت له ؛و إذا جاءك المعتذر اصفح عنه ؛ وإذا قصدك المحتاج أنفق ؛ليس المطلوب أن يكون في جيبك مصحف ولكن المطلوب أن تكون في أخلاقك آية ".

أصلا فساد المجتمع مرتبط بفساد النظام ؛عندما أنهيت مذكرتي التي تناولت موضوعا سياسيا ؛رواية جسدت حالة البلد المزرية ،والمتحللة تفآجأت كثيرا لأنني لا أهتم للسياسة ،لا أقرأ عنها ولها، ولا أحب الحديث عنها والخوض فيها. لأنك إذا أردت أن تفهمها وخاصة بالجزائر فإنك تنطلق من الصفر ؛وتعود إليه.

أستغرب أنني لأول مرة أكتشف ما يدور بالبلد حقيقة ؛ عرفت التاريخ والسيرة الهلالية من خلال رواية .

خاصة أنه أخبرني أستاذي بالجامعة أنها إسقاط للواقع ؛ بحذافيره عن طريق خلط التراث بالأسطورة من باب السخرية من الواقع وحتى الخيال والتاريخ معا .

أجابني أستاذي ....عندما أبديت استغرابا تجاه حقيقة السياسة ببلادنا أن المجتمع الشرقي خبيث ؛عديم تربية يعبث بسمعة الآخرين كيفما يشاء ولا يبالي ؛يلعب بدرجات وشهادات الكفاءات ويبيعها لأصحاب الجاه والمال ...

قالوا في العرب يوما : أنه لا تنتظر من مجتمع بائس لا يستطيع وضع القمامة في مكانها المناسب أن يضع لك الرجل المناسب في المكان المناسب .

سألني الأستاذ الدكتور / مزعاش مراد يوما –والذي أكن له احتراما شديدا والذي حرسني من كل شر كوالدي – ما أفضل عادة تعجبني أو سلوك بالبلدان الأوروبية ؛أجبته أن أفضل شيء يعجبني ولم أقرأه في كتاب لنا يوما ولم أره بشارعنا....مثلا في روسيا وكثير من البلدان الأجنبية ،يضعون شارة حمراء على باب المنزل لتدل على وجود مريض بالبيت ،حتى لا يصدر من الناس ما يزعج المريض من ضوضاء وكلام أو صراخ .

سُعد جدا بإجابتي ....ابتسم ابتسامته الهادئة وعلق بأن الجواب ينم عن ذوق وتفكير فاخر .

سألني بذكاء أكبر هذه المرة ...

لو أتيح لك شيء مماثل بالمجتمع الشرقي ما كنت فاعلة ؟

أجبته بابتسامة توازي ابتسامته هدوءا...حسنا سيدي سأضع على بابي لافتة مكتوب عليها أجمل ما كتبه جبران خليل جبران :

"ضع نـــفاقك خارجا وادخل فمنذ مدة لم يزرني أحد".

بدا الاطمئنان في عينيه بحارا ....اطمئن لوجهة السفينة ....وضع آماله بين يدي وأحلامه على كتفي ورحل .

ذكرني ...السيدة عائشة تتجنب كثيرا الحديث عن الوطن والانتماء ؛سألتها يوما :بينما يتحدثون عن محاسبة السارقين والمجرمين قالت لا أتحدث عن وطني ؛لأن إكرام الميت دفنه ،أيعقل أ ن تدفني وطنا بحجم الجزائر؛يا سيدتي ماذا عن الموتى والشهداء وقضية العلم والهوية ؛ ماذا عن ابن باديس وفاطمة نسومر ؟

متى أصبحنا نتحاشى الحديث عن الوطن ؟

جلست إلى جانبي ورددت والدمع القرور بعينيها ...

لقد كتبوا ذات يوم وهم صادقون فيما كتبوا :

سألوني عن وطني ؟

فرددت لهم النشيد الوطني ....

إلى أن وصلت

(سالما ؛منعما وغانما ؛مكرما)

فبكيت .

سأنتبه للسيدة عائشة كثيرا ...سأحقق كل ما تريد ...

بعد أن تخلت عن وطنيتها ...أدركت أن إصابتها خطيرة ....

رددتها بوطنية هذه الكلمات ؛وطنية مسجونة في غياهب نفسها ...

أيقظت بي وطنية مغتربة ....منذ زمن بعيد عن أرض الوطن

لقد أيقنت حينها أن جدي باع أملاكه كي ينعم السارقون ...

"يقول محمد الماغوط :

"سأمحو ركبتي بالممحاة .....سآكلها حتى لا أجثو لعسكر أو تيار أو مرحلة ما."

"إن من الصعب على شعب ثرثار أن يسمع الصوت الصامت لخطا الوقت الهارب"

–مالك بن نبي–

"نبدأ جميعنا بالرقص داخل علب ورقية مملوءة بالوحدة والصراخ الداخلي الذي لا يسع أحد سماعه إلا أنفسنا....

لاشيء أمامنا سوى مرآة

وينتهي بنا المطاف يوما ..

نعتلي المسارح الكبيرة نكذب على أنفسنا ...

نمثل كثيرا ...ويصفق لنا الجمهور بحرارة"

–مروى وناســي–

مملكة الورق .....

هي القطعة الأرضية الوحيدة التي أملك عقد الملكية خاصتها

هي المدينة الوحيدة التي لا تستقبل الخطائين والمجرمين

هي المقبرة التي نلتقي فيها بالماضي ونملك فيها حق زيارة الأموات

والأحلام المقبورة ....

هي التي ترد الضائعين ....

وتمنح جواز السفر للمعتقلين ...

مملكة الورق .....

الكل فيها ملك نفسه ...

لا يستعبد أحد الآخر وقد ولدته أمه حرا....

ممنوع فيها زواج المصالح ...

ممنوع عقوق الآباء والآباء والزوجات و الأمنيات

مملكة تحميك من أرض لا خلود فيها .....

أكتب عن عائشة :

"أعتذر لعمر العشرين لقبوله أن يعاش بهذه الطريقة

أعتذر لعمر الخمسين والستين والسبعين أن يموت صاحبه بهذه الطريقة ...

أعتذر للميت ...الذي يرقص الناس بجنازته ويناقشون مستقبل مشاريعه التي تركها خلفه وهي منقوصة ...

أعتذر للحظة أصبح الجسد فيها عاجزا لا يستطيع الرد على هؤلاء بأفضل طريقة..."

لست خبيرة بأحوال وقضايا الوطن ،لا أعرف كيف أحدثك عن حالة البلد ،ربما لو تحدثت ستعتزل الوطنية إلى الأبد ،أتذكر فقط أنهم قالوا :وعندما تقود الحكومة الشعب إلى الخراب بشتى الوسائل والإمكانات يصبح عصيان كل فرد من أفراد الشعب حقا من حقوقه بل واجبا وطنيا ...

قررت أن أمضي الليلة عند السيد عائشة كي أنفض رائحة الغياب الطويل ،أقف عند الباب و أطرق بروية .

السيدة عائشة ليست وحدها ، إنه الأمير عبد القادر ،إنه كما كنت أدرس عنه بالصفات ذاتها ؛رائحة المقاومة تفوح منه ؛عدت بالذاكرة قليلا إلى الوراء ؛تذكرت اليوم الذي وجدت فيه عمامة بيضاء ؛بغرفة عائشة وقد حملتها ووضعتها على كتفها وكأنها أعز الأشياء لديها.

لم أصدق إنه هو ....انعقد لساني عن الحديث نظرت إلي وأجابت بهدوء كبير استغرابي الذي تفضحه عيناي ...إنه أحد أقاربي ...

-كيف ما علاقتها بالأمير عبد القادر ؟

لا أستغرب أنه قريبها ...

إنه نفس الصمود والقتال ...

إذا كان رابط بينهما فهذا هو القاسم المشترك على الأرجح.

جلست بجانبه ولازلت غير مصدقة أنه الأمير فعلا.

صمته تقشعر له الأبدان ....

لباسه وحده يصيبك بالتسمر مكانك ...

لم يتحدث إلي أبدا...

لما هم بالانصراف سألته :كيف يمكن أن تكون حيا إلى الآن ؟

تقدم نحوي وقال :ليست وحدها السيدة "عائش" وحدها من تعرفني ولست قريبها وحدها فقط.

كان يلقبها عائش إنه من الجميل أن يترنم ويرخم اسمها هكذا .

ليست الوحيدة التي أرغب بزيارتها .

أنتم أحرار عند دعوة الماضي من ذاكرة الوطن وذاكرة نوفمبر .

لكن لم أفهم عائشة تقول إنها سليلتك

توجه بنظراته نحوها :

عائش من سلالة الوطن النبيل ...وفية للذاكرة كثيرا ؛إنها أيضا على علاقة متينة ببوبغلة ولالة فاطمة نسومر.

أستعين بها كي أبقى على قيد الحياة .....

فحتى الأساطير القديمة تحيي موتاها بالذكر وتتذكرهم كل ثانية كي لا تطرحهم ذاكرة الزمن ....ومن لا يتذكر الأموات ستتلاشى أرواحهم حتى من السماء وستختفي إلى الأبد ....

أخبرني أنه يسمع من عائشة أخبار البلاد حتى يطمئن عليها ...

أنهى حديثه بقوله:

كنت لأكون أكثر فخرا لو كان لعائشة أبناء وأحفاد ...

أوصاني بها خيرا وألقى السلام ورحل.

أحسست كأنها جلسة من جلسات مؤتمر الصومام ؛رائحة الماضي والذاكرة تملأ المكان ؛جميل أن تستمد عائشة قوتها من هؤلاء ،إنها تعيش التاريخ والذاكرة وليس من سمع كمن رأى.

هنيئا لها بمؤنس مثل الأمير عبد القادر .

وددت أيضا لو كان بإمكاني أن ألتقي بفاطمة نسومر أيضا ...كي أطمئن أكثر على التاريخ ؛كي أتأكد أن كل ما روته لنا الكتب والسير وما سمعناه حقيقة وليس من ضرب الخيال.

سألت عائشة : هل سيعود الأمير ويزورك مرة أخرى ؟

نعم تجيبني ؛سيأتي متى استدعته الذاكرة إلى هنا .

أريد أن أتأكد من هوية التاريخ والثورة أن أمحو فكرة التواريخ المغلوطة والمغشوشة ،أن أطمئن إلى تفاصيل الحروب وحقيقة الاستعمار.

عله يساعدني ، حتى لا أخجل عندما أتحدث إلى الآخرين .

إذا سأقضي الليلة عندها ؛أدركت للتو أن الليلة التي كنت أتردد فيها للذهاب إلى الترويح كانت ليلة أشبه ..بليلة القدر ..وحي السيدة عائشة مميز جدا .

إنها ليلة اكتمال القدر ....كان ضوء القمر فيها على غير العادة.

ولنا في الأقدار حياة ...

مازلت لم أعرف من تكون تحديدا ؛لكن بما أنني التقيت الأمير عندها سأطلب منه أن يخبرني من تكون .

كنت أصلي إلى جانبها ،أحب جميع ما تفعله ؛وما تطبقه من أخلاقيات الصلاة.

امرأة تعيش الماضي والحاضر بقوة و تأمل بلطف فالمستقبل .

ونحن لا عشنا حاضرا ولا تجاوزنا ماضيا وتركناه يرقد بسلام ؛

أما عن المستقبل تمنيت لو نتركه وشأنه بحجة الغيب والقضاء والقدر ونقر أنه ليس ملكنا.

اقتربت مني وقالت بهدوء : رائحة عطرك مميزة ، رائحة الطيب والمسك والخزامى...

ذكرتني بجدتي –رحمها الله– كنت عندما أشتاقها أشم رائحة الطيب ..

أحب أن أعتني برائحته بين ملابسي كما كانت تفعل ...

أجبتها بأنني أصنع عطوري لوحدي لا أبتاع العطور.

تعجبت السيدة عائشة ...قالت أن صنع العطر يحتاج لمعرفة كبيرة بالورود والأزهار.

يا سيدتي الروح من تصنع العطر وليس الورد وغيره...العطر بالنسبة لي ماء عذب يتلون بأنفاسنا ويحمل رائحة قلوبنا وأرواحنا .

يقولون أن شخصية المرء تتضح من خلال أسلوبه وعطره الذي يضعه إذا هي مسألة جودة الأذواق دوما .

سيدتي أصنع عطري بنفسي هذا أقل ما يمكنني جعله ملكا خاصا بي فقط.

صعدت إلى "تراس" هادىء جدا بالجهة الخلفية للمسجد بعد أن أتمت صلاة العشاء ؛أول مرة أراه إنه جميل جدا رغم مساحته المتواضعة ،بليق بها ....يشبهها ...تكفيهم فخامة الأسماء ...إنه يناسب حجم تأملها ،ويتسع لأفكارها المتوقدة ليلا .

به مقعد خشبي لا شيء يضيئه سوى أنفاسها المؤمنة الهادئة .

سألتها كيف التقت الأمير عبد القادر؟

لا تجيب عائشة بسهولة ؛ تصمت لبرهة من الزمن ثم بدأت تتحدث في صمت .

لماذا نحن مزدوجون

إحساسا ....وتفكيرا ؟

لماذا نحن أرضيون .....

تحتيون.....

نخشى الشمس والنور....

لماذا أهل بلدتنا ...

يمزقهم تناقضهم ....

ففي ساعات يقظتهم ...يسبون الضفائر والتنانيرا....

وحين الليل يطويهم ...

يضمون التصاويرا.....

اثنان في أوطاننا

يرتعدان خيفة

من يقظة النائم

اللص...والحاكم ...

-أحمد مطر-

عندما تقرر البحث عن ذاتك تأكد سيخلو لك السبيل يوما ، فقط قاوم ولا بأس في الفشل أو حتى الموت ...تذكر أنه يكفيك شرف الاستشهاد في سبيل الذات .

طلبت من عائشة أن تعود بي إلى الحديث عن الوطن ...

الوطنية عندها معقدة ..تواصل كلامها أن تكون وطنيا بمفهومك وقويا بمنظارك وغنيا بقناعتك ومستأنسا بوحدتك إنه جهاد لا يعرفه الفاتحون وكفاحا لم يتسنى للتاريخ معرفته بعد.

الإنسان لا يمكن أن ينجو من الحياة ومجتمعه بسهولة وهذا شيء آخر عليك معرفته ؛ حتى اسمه يمكنه أن يورطه بقضايا وجرائم كبيرة .

نعم ؛اكتشفت أن الآباء مقصرون حينما يختارون أسماء أبنائهم ؛ لم يفهموا بعد أن الأسماء في مجتمعنا تحمل أبعادا و الأبعاد قد تقتل أبناءهم روحيا ونفسيا وحتى جسديا ،تُحملهم ذنوبا لم يقترفوها ،تذكرت ما قاله محمد الماغوط :

(سأنجب طفلا أسميه آدم لأن الأسامي في زمننا تهمة ؛فلن أسميه عليا ولا عمرا لن أسميه صداما ولا حسينا ولا حتى زكرياء أو ابراهيم ولا حتى ديفيد أو جورج ،أخاف أن يكبر عُنصريا وأن يكون له من اسمه نصيب فعند الأجانب يكون إرهابيا وعند المتطرفين يكون بغيا وعند الشيعة يكون نسبيا وعند السنة يكون علويا أو شيعيا

...أخاف أن يكون اسمه جواز سفره ؛أريده آدم –مسيحيا أو مسلما- أريده أن لا يعرف من الدين إلا أنه لله و أريده أن يعرف أن الوطن للجميع ؛سأعلمه أن الدين ما وقر في القلب وصدقه عمله وليس اسمه سأعلمه أن العروبة وهمٌ وأن الإنسانية هي الأهم ؛ سأعلمه أن الجوع كافر ،والجهل كافر ،والظلم كافر سأعلمه أن الله في القلوب قبل المساجد والكنائس وأن الله محبة وليس مخافة .... سأعلمه ما نسي أهلنا أن يعلمونا ...سأعلمه أن ما ينقصنا هو ما عندنا و أن ما عندنا هو ما ينقصنا ؛سأعلمه أني بدأت حديثي بأنني سأنجبه ذكرا لأن الأنثى مازالت تؤد و أن الخلل باق في المجتمع العربي .

قد نلوم من يكتب ونمسح بما يكتب أحذيتنا ونوافذ مقاهينا وحاويات القمامة .
عمال النظافة في بلادنا إذا أرادوا أن يجمعوا القمامة يمزقون صفحة من كتاب أرهق صاحبه تفكيرا كي يحملوا بها القمامة .
قد يغلف لك الجزار أيضا بما يكتبه الآخرون العظام التي ترميها للكلاب .

قد يبدو الآخرون أكثر جرأة حين يعتدون على أحلام بعضهم البعض وقد يسعى البعض منهم إلى تأديب الفكر وخاصة إذا كان يبدو عاهرا وتهذيب القلم المتبرج ...

كل هذا يعود إلى مسألة الدين والأدب وما بينهما من خلط عظيم ؛يخلطون بين ديانتهم وديانة من يكتب.....

لم نتعلم من أبائنا سوى أن من يسخط على العرب كافر لأنه ببساطة يسخط على الإسلام ؛لكن متى أسلم العرب حتى يؤدبوا كاتبا .

يا سيدتي أعلم أنك تريدين أن أكون كاتبة ؛ أن أستشهد في سبيل قلمي كي أغير العادات والتقاليد المعاقة المشوهة .

ليس كل ما يلده الكبار سليم ومعافى ؛لا أملك حق كتابة حياة الآخرين حتى بإذن منهم ؛ لماذا ؟

السيدة عائشة بصوت دافىء ودموع هادئة وديعة تتمدد بكل حرية على وجنتيها ؛ أخاف أن أطفف أن أخسر الميزان أتعلمين أنه الويل للمطففين أخاف أني إذا وزنت أحلام الغير خسرتها ؛ قلمي لم يتعود التجارة ويعلم جيدا أن التجارة مع غير الله تجارة بائرة كاسدة .

الكثير من الناس من يود منك أن تكتب حياتهم كما تكتب أنت أحلامك وأمنياتك ؛جميل أن يودعك الناس تفاصيل حياتهم وما فعله بهم القدر كي تكتبها لهم وينامون وهم مطمئنين أنك ستتقن الكتابة والسرد والوقفات التأملية بصفتك كاتبا يمتلك إحساسا بالمعاناة والألم أكثر من غيرك ...

لم أستطع تلبية هذه الرغبات الغريبة ...المتوجسة ...إنما أودعتها في فواصل طويلة جدا حتى تغنى من جوعها وتأمن من خوفها .

إليك عنهم:

أنا أنتمي لأولئك الذين كانوا أطفالا عاديين لأولئك الذين كانوا في الوسط ليسوا متفوقين ولهم حفلات تكريم ولا مشاغبين يعرفهم الجميع لأولئك الذين لا تناسبهم قياسات الألبسة ،فيضطرون دائما لتقصيرها لأولئك الذين ليس لديهم عضلات مفتولة ؛ولا قوام ممشوق لأولئك اللواتي لا يمتلكن عيونا ملونة؛ لأولئك الذين يرتبكون إذا تكلموا أمام خمسة أشخاص ويسترسلون في الكلام...

أمام مراياهم لأولئك الذين لم يتذوقوا السوشي من قبل ولم يشربوا الصودا ؛ولا يعرفون شكل الكافيار...لأولئك الذين لا يفهمون سوق العملات ولا ما هي المحكمة الدستورية ولا من هو نتشه لأولئك الذين طالما فضلوا الصمت على الجدال ؛ولو كانوا على حق الذين ضاعت حقوقهم لأنهم ليسوا وقحين بما يكفي أو سيئين بما يكفي .....لأولئك الذين يعرفون ما معنى أن تنام جائعا ....أولئك الذين تقطع عنهم الكهرباء ؛لأولئك الذين يوفرون أشهرا ليشتروا لبسة واحدة .

لأولئك الذين تعني لهم العملات المعدنية الكثير ؛ لأولئك الذين تعرضوا للشماتة والسخرية لأولئك الذين يلفتون الانتباه ولا يثيرون الجدل ؛لأولئك الذين يحدقون في المدينة ليلا وليس لهم صديق إلا الله.

أعلم أنك بدأت تلقبينني بالكاتبة الصغيرة أفضل لو قلت حالمة صغيرة لكان أجمل سيدتي ؛من الصعب في بلدنا أن تتاح لك الكتابة وحتى الحلم...

الكتابة اتهام وليست ميزة ...

معناها ضيق جدا بالنسبة لهم لأولئك الذين ينمو ظلهم في الغياب وينمو صوتهم في الظلام ....

الكتابة هي أن تصنع مواطنا وفيا يكون من الورق وقارئا يسمع صوتك بالعدم ؛ عندما تكون أعزل إلا من سلاح القلم ....

تتطلب الكتابة الصدق كثيرا وأنا أخاف الكذب ....إنها ليست للجبناء ستجتاحك موجة من الصدق العارم التي تجبرك أن تكتب وتخوض في المسكوت عنه وعندها ستكون مطلوب لدى اليونسكو واليونيسيف بحجة انتهاك الحقوق الإنسانية والتعدي على الحقوق الخاصة .

وعندها لا تكون كاتبا صالحا ...

الكتابة يا سيدتي تحتاج أن تؤدي فيها دور الأم تلبي بكل عاطفية نداء القراء أن تعدهم بالمزيد وعندها يحدث الخوف من التقصير .

أخاف المسؤولية جدا ...وأخاف السجن كثيرا ....

أخاف أن أكون كحكومتنا ....تبني لشعبها المساجد كي يدعو عليها عند قيامه للصلاة .

أشد ما يقض مضجع الإنسان هو أن يكون طموحا جدا ؛أن يرفض ما يسميه الآخرون العيش وفق خطط جاهزة .

لا يستطيع الإنسان أن يختار أسرته ولا أن يصمم شكله ولا أن يختار عرقه ؛ولونه لكن له كامل الحرية في أن يختار طريقة عيشه وأن يستبدل مجتمعه المستهلك من كل شيء .

لو كان بإمكاني أن أكون كاتبة كما ترغب السيدة عائشة لكان أول مؤلفاتي :(كيف نستبدل مجتمعاتنا الفاشلة)

نعم إنها نظرية مكسرات قابلة للتكسير والتفتيت والتحميص أيضا على درجة حرارة عالية جدا .

أنا من دعوت الآن عائشة كي تجلس بجانبي ؛كنت كمن يجبرها على الاستماع ويرغمها على الجواب .

عملي يتطلب الاختلاط كثيرا ....

المشكلة أنني عفوية جدا ....لا أعير اهتماما لنظرات الآخرين ؛أتعامل مع الجميع ...ما لا يمكنني فعله هو أن أتحدث وأتصرف بطلاقة بوجود الرجال ...

أتجنب كل ما من شأنه أن ينشئ الخطوط المتقاطعة .

بعد أن أنهيت العمل توجهت إلى الخزانة كي أضع القليل من السائل المعقم لليدين كي أتناول قطعة حلوى .

انتبه أحد زملائي ...اقترب مني وقال : يمكنك أن تتخلي عن بعض الإتيكيت لأنك ستكونين ملفتة للنظر ثم ستصبح هذه التصرفات مع مرور الوقت عادة يربطها الناس بك وتصبح صفة لك .

حتى إذا ما تخليت عنها يوما بحجة الظروف والمحيط اتهموك بالوسخ قبل أن يكمل الحديث أخبرته أنه هو الآخر لا يحق لمجتمع كهذا أن يحظى به .

سأخبرك شيئا زكرياء :

امرأة على قدر من الجمال ...

على قدر من الأخلاق ...

تستمد قوتها من أبيها لن يكسرها رجل ...

تماما مثل هذه السيدة الجميلة التي أعمل ...

إنها مثقفة جدا ؛قارئة ممتازة ...أعرفها منذ مدة ...

صاحبة ذوق رفيع ...

لا تسجد ولا تركع لغير الله ....

لا يناسبها المجتمع الذكوري أبدا ....

لم يكن السيد "أحمد" يبدي أمامها شعورا بالنقص أبدا ؛لأنه لم يحظى بولد يحمل إسمه ...

كان يذكرها أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :"لا تكرهوا البنات إنهن المؤنسات الغاليات".

إنه رجل واسع الفكر متفتح بحياء شديد وتحفظ أشد ...

حاولوا اغتصاب سعادتها بعد رحيله ؛ بذلوا كل ما بوسعهم ليجعلوها تؤمن أن اليتم عار ...

إنه عقاب يحل بالناس نتيجة ذنوبهم أن أبوها مجرم كبير ...

حرمها أن تكون زوجة وأما .

تعيش تحت رحمة رجل...بعد وفاته بحجة أنه سيسترها .

نعتوه بالظالم الذي شجع أحلام ابنته وحرمها حلم الفارس المنتظر...

الله لا يضيع من رفع رأسه إلى السماء وبكى وترك الباقي لله لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ....

"فاطمة" اليوم واحدة من أكبر الدكاترة التنمية البشرية بكندا وطبيبة ناجحة ؛ "أحمد"حاضر دوما في دعواتها ...

حتى أن ابنها سمته على اسم والدها هي واحدة من القصص التي على العالم العربي أن ينصت لها حتى يتعلم الفطرة السليمة .

كي يهذب توقعاته حيال حياة الآخرين ؛يجب أن يتعلم ألا يجمح بخياله كثيرا ؛كي يضع النهايات المأساوية للقدر.

وضعت عائشة ورقة بيدي ...أكدت أنني أحتاج إليها كثيرا .

لست مستعدة كي أفتحها الآن .

ما للعروبة تبدو مثل أرملة ؛

أليس في كتب التاريخ أفراح ؛

والشعر ماذا سيبقى من أصالته ؛

إذا تولاه نصاب ومداح؛

وكيف نكتب والأقفال في فمنا ؛

وكل ثانية يأتيك سفاح؛

–نزار قباني –

تقول عائشة قبل أن تهمي بالكتابة

يجب التفكير بالعروبة مليا

والتحقق من الهوية الوطنية قبل الشروع في التعبير

والمطالبة بحرية التعبير

أعطتني ورقة تقول على لسان أحدهم فيها :

نهض من نومه مسرعا وذهب إلى الحمام

التركي واستحم بالصابون الفرنسي ولبس

ملابسه الكورية وكاد أن ينسى ساعته السويسرية

وتناول قطعة من الجبنة الدنماركية وأحضرت

له خادمته الفلبينية فنجان قهوة برازيلية

وطلب من سائقه الهندي أن يحضر سيارته

الألمانية أخرج أوراقه من حقيبته الايطالية

وألقى محاضرة بعنوان: مقاطعة الغرب.

-مع احترامي لكل حرف في لغتنا

ومع تقديرنا لكل ظرف زمان ومكان في جملنا

لكن لابد أن نسأل

ما فائدة الاسم إذا كان صحيحا والوطن نفسه معتلا

-محمد الماغوط-

تحتاج مسؤولية كهذه لتفكير ناضج جدا ووعي متقدم .

كانت ليلة استثنائية رفقة عائشة ؛حملتني مسؤولية جديدة

سأصلي لأجلها ؛ لأجل أن أكون بحجمها .

بينما أنا بالعمل أقبلت امرأة تبدو عليها علامات الأناقة واضحة جدا .

كما أنه يتضح من لباسها أنها تشغل وظيفة مرموقة

وصلت عند مكتبي وتوقفت تحققت كوني الشخص المطلوب

قالت أين الكتابات؟

لم أفهم ...أفصحت عن نفسها ...

إن هي تعمل بدار النشر وما علاقتي أنا بذلك ؟

تقول أن هناك من أخبرها أنه لدي مشروع كتابة ...

من أرشدها ؟ومن أخبرها بشيء كهذا...

من الذي ورطني بالكتابة ؟

إنها تملك رقم هاتفي وعنوان منزلي ...كيف سأتملص منها .

أخبرتها أنني لا أملك سوى محاولات وسأتصل بك ريثما أستعد.

كانت إحدى العاملات بالشركة وهي امرأة كبيرة تشاركني مكتبي تنظر وتحدق بي مرارا وتكرار لأني ارتبكت ارتباكا كبيرا عندما فاجأتني فكرة الكتابة.

هي أشد وقعا من خبر الالتحاق بالخدمة العسكرية .

سألتني بفضول وهل تجيد سلالة العرب شيئا غير الفضول .

من تكون وما تريد مني ؟

أخبرتها ما دار بيني وبين المرأة التي كانت هنا قبل قليل؛ضحكت ....ماذا هل تحلمين بالكتابة ؟

هل تسمين تدوين الخرافات وحياتك اليومية كتابة ؟

البنات في سنك تتزوج وتنجب وأنت ترهنين حياتك بالكتابة وتقتاتين على انطباعات القراء.

غادرت مقر عملي مسرعة وأدركت أن الشهادة لدى هؤلاء مجرد ورقة تثبت أنهم مثقفون ولكنهم لا يفهمون أبدا كما قال أحدهم:

جلست في أقرب مقعد وقعت عليه عيناي ؛شعرت بحاجة ماسة للبكاء ؛تمنيت لو كانت السيدة عائشة ؛لقد تذكرت ورقتها...

عدت للبيت مرهقة...

رحت أتحسس ملابسي بحثا عنها...وجدتها قمت بفتحها ؛كتبت عائشة:

قرأت ذات يوم وأنا صغيرة مثلك تماما...وكانت أمنيتي أن أغير العالم علموا بناتكم أنه في هذا الكون أشياء مهمة أشياء أهم من سفرة الطعام المتناسقة وزجاج النافذة اللامع وسكر الشاي ،وتناسق جسدها ونبرة صوتها أشياء أهم من رضا الناس؛ أشياء أهم من رجل تفني عمرها معه هباء ....أشياء أهم من براعتها في الطبخ ؛والمسح وغسل الملابس ؛ومسح الحذاء ...أشياء أهم من قدرتها على الرقص لجذب نظرات أمهات الذكور والجبناء ....علموها أنها قوية فالله يحب الأقوياء ؛علموها أنها سكن...ووطن ...وحصن للضعفاء ؛علموها ألا تخاف من المستقبل فقط ؛ لأنها فتاة علموها أن الله كرمها ورفعها ؛وكل من يحاول إيهامها بغير ذلك ؛ فهو ليس إلا ساذج أكثر من الأغبياء ؛أخبروها أن الله إختتم بخلقها هذا الكون فهي مصدر الاكتفاء ؛ لا ترهقوها بتفاهات مجتمعكم و لا تنهكوها ،داخل بيوتكم دعوها تخرج .....تتعلم ....تسافر كما سافرتم....

تعيش كما عشتم وتجرب كما جربتم ؛ تصيب كما أصبتم ؛وتخطئ كما أخطأتم ؛دعوها تحلم وتخطط وتنفذ ....

إن لم تكونوا لها عونا فلا تكونوا لها عائقا ؛ إن لم تكونوا لها أمنا فلا تكونوا لها حربا .....دعوها حرة كما خلقكم ربكم .

وأكرموها كما وصاكم نبيكم ؛وارحموها من سوء ظنكم ؛واحموها من مرضى النفوس وشاكلتهم .

ربما سآخذ على حـــلم عائشة .....

عمل الشركة لا يمكن أن أعيل به أحلامي .

لأنه إذا أردت لحلمك أن يكبر سويا ...دعه ينمو في روضة بدل أن ينمو في سجن .

أحلام السجون خطيرة وقد تؤدي بصاحبها إلى التمرد ...

قد تجعله يصاب بالتوحد والانفصام ...

فكرت بجدية في البدء بالكتابة ....أحتاج فقط لطرف خيط أستعين به كي أبدأ.

أخبرت عائشة بالأمر ..لما كنت أمشي لجانبها بالحديقة ...فخورة بها

وهي إلى جانبي .

أرجعتني كثيرا إلى طفولتي ؛لا أعلم تحديدا غرضها ...

نعم .إنها البداية الجميلة والصادقة لجميع الروايات والمسرحيات والقصص وحتى الأفلام .

تذكرت عندما كنت في الصف الثالث أنني كنت أرفض القيام للمدير عند دخوله ؛أو لآنستي عند دخول القسم .

لم أكن ساعتها و إلى الآن أؤيد هذا الإجلال السخيف ؛ لم أقف يوما للمدير... ضربتني يومها المعلمة ووبختني على ذلك .

تمنيت لو كنت أملك القليل من الجرأة فقط كي أخبرها بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ينهى عن تاليه البشر وتمجيدهم والقيام لهم بأي شكل من الأشكال ؛كان يرفض حتى التمجيد للأنبياء فقد كان يكره أن يتميز عن صحابته بشيء لأن الله يكره أن يتميز عبده بين عباده .

لقد كان صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق وبدر يحفر مع صحابته ويذبح الشياه رفقتهم خشية أن يتميز عليهم .

كبرت اليوم وها أنا أسترجع الموقف من جديد ؛يا سيدتي الآن أملك ما يكفي من الشجاعة والثبات لقول هذا .

أستطيع اليوم إخراج ما أؤمن به إلى النور ...

بإمكاني اليوم أن أفضل المجنون على العاقل ...

والشقي على السعيد ....

والفقير على الغني .....

ومواجهة الطقوس المنحرفة ....البغية ....

أصبحت اليوم أدرك جيدا أنني كنت أحترم معلمتي كما رباني والدي ولم أكن ساعتها جبانة ...

علمني والدي أن الخوف من الله فقط وليس من البشر .

بينما أنا بالعمل منهمكة حتى أقبلت مديرتي ومعها سيدة تبدو مألوفة كلما اقتربت ؛أرادت أن تقابلني لأنني المسؤولة عن قبول ملفات العمل بالشركة وكنت قد قبلت رجلا آخر هذا الأسبوع واتضح الآن أنه ابن هذه السيدة ....

وقفت أمامي وألقت التحية ....تركتها المديرة معي وانصرفت ...

بدأت ذاكرتي تجمع الشتات وتبحث في أعماق الماضي إنها معلمتي نفسها التي صفعتني يوما ...

عاملتها بما يليق بمعلمنا ...الذي علمونا منذ أن كنا صغارا أنه يشبه الرسول ....

يبدو أن عينيها تتوسلان الذاكرة بمن أكون ...

بعد تحديق طويل بي ...قبل أن تسالني أجبتها من أكون ....

شعرت بالارتجاف ....ربما بالخجل ....تذكرت أنها بيوم من الأيام قد صفعتني

....حاولت أن تعتذر ....حاولت تقبيل رأسي منعتها ...

ببساطة لأنها معلمتي ...وكما يقول مثلنا العامي ...العين ما تعلى على الحاجب

لا يمكن أن أسمح لها أن تعتذر ....لقد علمتني حرفا وأنا مدينة لها مدى الحياة

...بتلك الصفعة التي جعلتني أقوى كلما تذكرتها اليوم .

-La pluie c’est pas toujours triste-

الأمة التي لا تبحث عن أحلامها إلا في كتاب ابن سيرين

أمة مازالت نائمة من حيث لا تدري

–أدهم الشرقاوي –

الذين نرفض أن ننزل لمستواهم

لا يعرفون أن ثمة فرق شاسع بين التكبر والترفع

الترفع شيء يشبه نصيحة أهلنا لنا ونحن صغار ..

إياكـــم و أولاد الشوارع

–أدهم الشرقاوي –

الكتابة شيء صعب وسهل يا خالتي عائشة ..

إنها حفلة على الورق ....

قد تقيمها لذاتك التي نسوها في حفلات التكريم ....

أين نسوا أنك من المجتهدين ؛

أين نسوا أن يكتبوك محاولة ؛

أن يشكروا لوالديك أجر ما أنفقوا عليك ؛

أن تخبر العالم بمدى سذاجة عقلك الصغير ومدى اتساع قلوبهم

تحيبني عائشة باطمئنان كبير وهي لم تنظر لي بهذه النظرة الصارمة قبلا

هي رقي وسمو يحدث بالنفس يتخيله المحكوم عليهم بالعمى عبث وجنون يصيب

الروح فتغدو ممسوسة لا مقدور عليها سوى بتلاوة شيء من القرآن .

من خلال القلم يمكنك :

أن تتوسط للإنسانية كي تخرج أحدهم من السجن ؛

عن طريق دفع حزمة من دعواتك ونظرياتك حول الإنسان والدين وتقدمها

ككفالة لتحرر روحا تعهدت للوحدة والسجون بالتغير نحو الأفضل .

يا سيدتـــي ...

لمحت اليوم عند حافة مطعم ؛شيخ كبير بجانب سيارة ...

تقدمت منه فوجدته يرسم عليها وهي مليئة بالغبار والتراب ..

يبدو أن صاحبها لا يعتني بها ...

بينما الرجل يرسم خرج رجل من المطعم ...يبدو أنه مالك السيارة ...

وقف الرجل إلى جانبي وبدأنا نقرأ ما كتب الرجل ؛ وإذ به يرسم سيارة وهو

بداخلها وكتب تحتها ...حلمي أن أمتلك سيارة ...

كتب حلمه على غبار وعلى سيارة رجل غريب بكل طمانينة ودون خوف ...

احتضنه الرجل ...اتضح أنه ثري ومن رجال الأعمال المعروفين ..

في طوكيو ...قبل جبينه وسلم له مفاتيح سيارته وقال له :

أخيرا كنت سببا في إسعاد أحدهم .

يا عائشة لقد سلمه سيارته حتى سيعده ونحن نبخل على بعضنا بالابتسامة .

هل يمكن أن أكتب شيئا كهذا على جبين العرب حتى يتعلموا ؟

هل يمكن أن نعلمهم الإنسانية فقط على ورق ...

هل تكفي هذه المواقف لصناعة إنسان من العرب ؟

فجأة تسألني عائشة عن شيء غريب جدا ...

هل لديك صديق يمكنك الاعتماد عليه ...

أصابتني بالضياع والتشتت ...

عائشة أنصتي لي جيدا ...

"لقد وجدت الله وأنا أسلك الطرق الوعرة وأعبر الجبل وأهرب من النار ؛لقد

وجدته حين لم أعرف مكاني أو أرضي وقراري ...

لقد كان حنان الله أول وآخر أصدقائي".

Un sourire

Un sourire ne coute rien et approche beaucoup

Il enrichit ceux qui le reçoivent

Sans appauvrir ceux qui le donnent

Il ne dure qu'un instant

Mais son souvenir est parfois eternel

Personne n'est assez riche pour s en passer

et personne n'est trop pauvre

pour ne pas le mérité

il crée le bonheur au foyer

et le soutien dans les affaires

il est le signe sensible de l'amitié

un sourire donne du repos a l'être fatigue

rend le courage au plus découragé

console dans la tristesse

et c'est un antidote de la nature pour toutes les peines

il ne peut s acheter ni se prêter ni se voler

car c'est une chose qui n a de valeur

qu' a partir du moment ou on le donne

si quelquefois ; vous rencontrez une personne

qui refuse de vous donner le sourire que vous méritez

soyez généreux donnez -lui le votre

car nul n a autant besoin d'un sourire

que celui qui ne peut en donner aux autres

لا بأس يا عائشة سأخبرك ...

سأصفها لك ...

تثاقلت خطواتها في البداية ...قدومها ...كمطر نزل بعد سنوات عجاف ..

اسمها يحمل شيئا من الشهور وألوانا من السنة والزمن المختلف.

حديثها واتصالها يأتي دوما متأخر وبعد صيام شاق وطويل .

لكنها عيد بعد الصيام وأي عيد

عيد الفطر في حلاوته ...وعيد الأضحى في هيبته الشديدة وطقوسه المقدسة ..

قصتي معها تشبه قصة الخليل وابنه

تجمعنا التضحية نفسها

الفداء قاسم مشترك بيننا

يجمعنا حب الإله نفسه ...

يقول رالف والدو إيمرسون :

"الطريقة الوحيدة للحصول على صديق هي أن تكونا شخصا واحدا"

ثقافة الصداقة لم تعد سلوكا ...

تتطورت جيناتها هي الأخرى وطورت نفسها ...

حتى أضحت مذهبا ...ولكل مذهب طائفة وإيديولوجية وحتى دولة لها رسمياتها ومقوماتها وحتى نشيدها ...

أصبحت هناك كتب تتحدث في فلسفتها وتنظر في أمرها ما تصنع

كتب في إحدى ثنايا كتاب بصحبة كوب من الشاي ..

الصديق هو الذي إذا حضر ؛رأيت كيف تظهر لك نفسك ؛لتتأمل فيها وإذا غاب أحسست أن جزءا منك ليس فيك ،فسائرك يحن إليه ،فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك وإذا تحول عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود ،وإذا مات يومئذ لا تقول :

إنه مات لك ميت بل مات فيك ميت ذلك هو الصديق .

أنى لنا بمثل هذا الصديق ؟

تعجب رجل من صديقه لماذا ظل يحتفظ برقم فلان في هاتفه رغم أنه مات منذ زمن بعيد ...فأجابه أنه تركه حتى إذا مر به دعا له ..

تخيلي حجم الوفاء ...حجم الحفاظ على المشاعر والمودة

الإحسان ...غائب فينا منذ تركنا الرسول صلى الله عليه وسلم

فهو من أكبر القضايا الغائبة ؛عن برامجنا وحضارتنا وخطبنا اليومية .

لم نتعلم بعد كيف نشرحها لصغارنا ...أخفينا عنهم قصة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أحبته ...

إنه الذي يقول إذا أحب أحدكم أخيه فليخبره أنه يحبه ...

لم ننقل لأطفالنا الأمانة كما سمعناها وقرأناها حين قال صلى الله عليه وسلم لو لم أتخذ الله خليلا لاتخذت أبو بكر الصديق خليلا .

لم نشرح لهم الأخوة والصداقة والخلة بمفهومها الصحيح...

لم يعلمنا الدكاترة في الجامعات شيئا عن الوفاء بين الصحابة وتقديسهم للصداقة..

ينسبون كل الأمراض للصداقة ...منا الآن من يفرض على ابنه الوحدة خوفا من الصداقة ولم يعلموا أن سوء الاختيار فقط من يؤدي للوفاة.

روى أحد المحاضرين لطلبته في الغرب نفس القصة التي يرويها لهم كل عام ..
كي يذكرهم فقال:
هناك فتاة تدعى "هانا" انتحرت وكانت قد تركت رسالة تخبر أحد زملائها أن هناك صندوق يحتوي على أشرطة وعليه أن يقوم بتسليم كل شريط لـ13 شخصا، في كل شريط تشرح كيف تسبب لها كل واحد منهم بالانتحار ...بين استهزاء وسخرية منها وكذب وغدر ..إلخ
كانت كل محاضراته تتضمن شيئا من نظرية الصداقة ... لم يكذبوا عليهم شرحوا لهم الأسباب وبسطوا لهم الاحتمالات وقدموا لهم ألف طريق وتركوا لهم الاختيار.

●الفصل الثانـــــــي...

إذا رأيتني ضللت الطريق...

فخذ بمجامع ثيابي وهزني هزا عنيفا

وقل لي :اتق الله يا عمر فإنك ستموت

–عمر بن عبد العزيز لأحد أصحابه–

قال أحدهم:

" بإمكانك أن تقرأ وأنت ترعي أغنامك لا علاقة

للثقافة بالقهوة ".

" عندما تميل شمس الثقافة نحو الغروب يصبح الأقزام بقامة العمالقة "

– كارل كراوس–

" عندما فقد الأديب الكولومبي "غابريال غارسيا "

ذاكرته في آخر حياته ، قال لصاحبه الذي جلس بجانبه :

أنا لا أعرفك ولكن أعرف أني أحبك ...ذاكرة القلب كما يقول ماركيز هي الأقوى....

الفرق بين الغرب وبيننا حتى في الصداقة واضح يا عائشة ببساطة ...هم يطعنون بعضهم وجها لوجه ونحن نطعن بعضنا خلف ظهورنا وفي غيابنا ...نشتهي أكل لحوم بعضنا وقد غزاها العفن.

هل اقتنعت الآن لم اتجه درويش ليستعين بالسنبلة في قصائده واستند عليها رغم هشاشتها ولم يكلف صديقا كي يحمل معه عبء المقدمة.

نذمها في أحلامنا ...نؤلف كي نحذر من الصديق وننسى أن الجنة لمن يكفل اليتيم.

لا نهتم للإصلاح كثيرا ...

نناصر سياسة رمي الأشياء والعلاقات بعد كسرها ...

كما قال أحدهم :

تربينا على أن الذي ينكسر غير قابل للإصلاح أبدا ،ولكنها مجرد ثقافة خاطئة؛ آمنت بها أجيال كثيرة ..

هناك فن ياباني " كينسو كوروي " وهو فن إصلاح الخزف أو الفخار بماء الذهب ؛ فتزيد قيمة هذه القطع المكسورة بعد إصلاحها

إنه نمط فكري بإمكاننا أن نغيره ما أن آمنا بجمال الأشياء المكسورة .

أتعلمين ماذا قالوا عائشتي :

كتب أحمد خالد توفيق حين هب عليه الحنين إلى الصداقة ...

"كنت أظن أن الذي يحبني سيحبني حتى وأنا غارق في ظلامي؛ حتى وأنا ممتلئ بالندوب النفسية ،حتى وأنا عاجز عن حب نفسي ؛سيحبني رغما هذا ولكن لا أحد يخاطر ويدخل يده في جب بئر البشر فيها كلهم يريدوننا بنسختنا السعيدة والظلام لنا وحدنا".

سأخبرك قصة جميلة سيدتي فمن واجبي إسعادك أحيانا ؛ كما يسعدني وجودك إلى جانبي :

في يوم من الأيام ذهب الجنود إلى ساحة المعركة ؛وكان القائد جالسا؛ قال الجندي: أيها الرئيس صديقي لم يعد من ساحة المعركة ؛أطلب منك الإذن من أجل الذهاب بحثا عنه فقال الرئيس : الطلب مرفوض وأضاف لا أريدك أن تخاطر بحياتك من أجل رجل من المحتمل أنه قد مات ؛ولكن الجندي لم يعطي أهمية للطلب المرفوض ؛ذهب وبعد ساعة عاد وهو مصاب بجرح مميت حاملا جثة صديقه ؛ولأن الرئيس كان معتزا بنفسه فقد قال :

لقد قلت لك إنه قد مات فقال له أكان يستحق كل تلك المخاطرة ؟

أجابه الجندي :

وقد كان يحتضر ؛بكل تأكيد يا سيدي فعندما وجدته كان لا يزال حيا ؛واستطاع أن يقول لي : كنت واثقا من أنك ستأتي .

ما أحوجنا إلى غيبوبة تدخل بها مشاعرنا الزائفة تجاه بعضنا وأن تستيقظ جوارحنا وتستقبل الربيع .

عائشة ؛التمييز بين معادن الناس أمر يحتاج إلى علم كبير ...

ولا شيء أبرهن به على تفكيري هذا سوى هذه القصة ..

دخل زوج على زوجته فوجدها تبكي ،فسألها عن السبب فقالت :أن العصافير التي فوق الشجرة تنظر إليها حينما تكون دون حجاب وهذا قد يكون فيه معصية لله ؛فقبلها الزوج بين عينيها لعفتها ؛وأحظر فأسا وقطع الشجرة ؛مرت الأيام وبينما هو عائد من العمل الذي غيبه أسبوعا عن زوجته وجدها نائمة بين أحضان عشيقها ، لم يفعل شيء سوى أنه أخذ ما يحتاجه وغادر المدينة كلها ؛وعندما وصل وجد الناس مجتمعة قرب قصر الملك فلما سألهم عن السبب قالوا : خزينة الملك قد سرقت.

في هذه الأثناء مر رجل يسير على أطراف قدميه ،فسأل من هذا ؟

قالوا : هو شيخ المدينة يمشي على أطراف قدميه خوفا أن يدعس نملة فيعصي الله ، فقال الرجل : تالله لقد وجدت السارق .

أرسلوني للملك ؛فقال للملك إن الشيخ هو من سرق خزينتك .

وإن كنت مدعيا فاقطع رأسي ؛فأحضر الجنود الشيخ وبعد تحقيق اعترف بالسرقة.

فقال الملك:

كيف عرفت أنه السارق ؟

قال الرجل : حينما يكون الاحتياط مبالغا فيه والكلام عن الفضيلة مبالغا به فاعلم أنه تغطية لجرم ما .

مجتمعنا مكسو بنفاق عظيم ؛ لم يعد يصلح لشيء .

نحتاج أن نجعل الديانة العربية مرادفا للديانة اليهودية لأن العرب أصبحوا مذهبا يهوديا جديدا .

إذا قررت أن أكتب يا سيدتي ..

من أين سأبدأ ؟

بأبطال ثورتنا المسنين ...

أم أسرد كيف سقط العرب ؟

هل أبدأ برسم معالم الديانة الجديدة.

هل تعلمين أن أغلب من يكتبون لا يحلمون بالحرية ؛إلا على قطعة من ورق ولا حق لهم في الميراث إلا في شيء يسير من الكلمات.

على الورق فقط يمكنك اختيار الأماكن والأشخاص ونوع الحرية التي تحلمين بها .

كتب أحدهم :

كتاب بعنوان "أمي حلم" وكان شخصا مقربا مني تجمعنا نفس الأشياء المفقودة ؛أعرفه لدرجة لا تجعلني أصدق العناوين بسهولة ؛استغربت لما صدر كتابه بهذا العنوان، إنه يحتمل التأويلات ويلعب بالتفكير ويحتاج إلى كثير من التحليل بالنسبة لشخص لا تعرفه.

إذا قرأته تجد نفسك أمام احتمالين إما يتم بالحياة أو أم حلم ؛لأنني أعرفه أرجح العنوان أو الاحتمال الأول ،لما اقتنعت به أصابني ارتباك شديد ، قرأت كتابه وإذ به يتحدث عن صفات أم تفوق ما تقدمه الأمهات لأبنائهن ؛شيء لا يجعل الجنة تتوقف عند قدميها فقط ،أكملت القراءة والانهيار الذي أصابني أكل كل الكتاب ،لأنني الوحيدة التي تعلم أن أمه أقسى من أن يصفها بهذا الوصف .

فكانت الأوراق عالمه يا سيدتي الذي شيد فيه أمه المفضلة .

هل تعلمين يا عائشة أن كلمة أمي عنده متاحة بين الورق فقط .

لا جنة سوى جنة الورق .

بمعنى ليس كل ما نكتبه واقعي وصادق ...

قد نكذب لمجرد الشعور بالسعادة والرضا والتصالح مع الحياة ؛وأحيانا لنصنع قدرا آخر على الورق .

سأكتب يا سيدتي ....

وأعدك بالكتابة ...

لكن على شروط وليس بشروط فقط ...

أن أبني لكل طفل مدرسة قريبة من أحلامه ...

سأكفل اليتامى وأصنع لهم أفضل الأمهات ....

سأجمع شمل الأقارب بالقلم ..

سأصنع فساتين زفاف كثيرة ...و أرسم الصورة الحقيقية للرجال الحقيقيين ...

سأكتب كل ما يحلم به المحرومون ...

لأول مرة أقوم بشيء سيتسبب لك بالكثير من السعادة...

سأبدأ الآن قبل أن تفتك التجاعيد بجمال الأمنيات والأحلام.

وتحيلها على كرسي الخرف.

كالعادة تقدم لك السيدة عائشة قصة كي تبدأ بها قدرا مختلف.

تقول :

أنه لا يمكن للكتاب أن يدافع عن أصحابه ولا يمكنه أن يؤنث مجتمعنا ؛لا يمكنه أن يسعد بالأنثى وهي تعتلي العرش .

الكتاب أيضا يعجز إذا صدق صاحبه كثيرا ؛ويتعب إذا كذب صاحبه أكثر.

يجب أن توزن حقوق الكتاب ويلبس غلافه بدقة وعناية قبل خروجه للنور .

حتى يخرج الكتاب يحتاج إلى نظام صحي يتبعه صاحبه .

يجب أن لا يقاطع صمت القصص التي تدور برأسه.

لا يتخيل كثيرا ولا يبخل بالخيال ؛الأخيلة تتعدد والتفريق بينها واجب

مهلا يا سيدتي كل هذا من أجل كتاب؟

تنظر إلي بصمت ...يحتاج الكاتب إلى وصايا لقمان لإنجاب كتاب.

أكملت وصاياها :

يا بنيتي ...

لا يحق للمبدع أن يتكبر ...

لا يجب أن يصعر خده للناس ...

أن لا يمشي في الأرض مرحا ...فالله لا يحب كل مختال فخور.

عليه أن يغضض من صوته ...

يا بنيتي...

كل عمل يبدأ باسم الله وخاتمته الحمد...

يكون عملا مباركا أينما كان ...

كلما كان العمل متواضعا زاده الله رفعة ....

كلما كان الكتاب صبورا وبسيطا

ينام في بيت الفقير والغني على حد سواء ..

كلما زاد وزن باطنه ونقص ثمن ظاهره...

وكان لصاحبه صدقة جارية ينتفع بها .

لم يعلمني أحد شيء مما علمتني السيدة عائشة .

باختصار الكتابة عالم ثالث؛ غير عالم الجن والإنس تستوطنه مجموعة ذوات تتوسط الإنس والجن.

تحدثت لي السيدة عائشة عن زوجها بينما نحن جلوس بمكان يتيح لك ؛ استرجاع قائمة ضحايا الفراق والموت والهجر.

لم تخبرني باسمه ولاعن عمره ولا عمله فقط تكتفي بأنه زوج مبالغ فيه .

على العادة عند التحدث ، عن الفراق تصحب الدموع الحديث ، لكن بدت وكأنها تتحدث بسعادة كبيرة، وإيمان متمرد.

فلسفة السيدة عائشة ؛جميلة جدا ؛في التأقلم مع الحياة ومستجداتها.

إن أصعب التنازلات التأقلم كما يقول محمود درويش ؛فجأة ظهر الأمير عبد القادر،جلس إلى جانبنا .

لم يبد على وجهها الاستغراب مثلي ؛تقول دوما إنه ضيف دون ميعاد.

مادامت الذاكرة تستدعي من تشاء وما تشاء فلا حق لي بالسؤال .

هو الآخر يعرف بأمر الكتابة ؛ وعلق بي الآمال الثقيلة .

لا حق بخذلانه كما خذله التاريخ ،وأبناء وطنه وحكومة بلاده.

أخبرته أن الأمر صعب ،المحيطين بي غير متعودين أن يعيش بينهم كاتب .

يبدو الأمر غير مألوف .

قال : هل تعلمين ماذا قال سيدنا عمر بن الخطاب ؟

ماذا قال ؟

قال : اعتزل ما يؤذيك ولم يقل تحمله .

جيد ...تبدو نصيحة مريحة جدا .

قال الأمير عبد القادر :

لو كنت فيما مضى خائفا مثلك ما وقفت بوجه فرنسا وما بحثت عن الموت.

الفرق بيننا كبير أنت حررت بلدا وأنا سأحرر كتاب ؛ ولكل غاية وسلاح وهدف والأجر كذلك يختلف.

وفي هذا المجال بالذات الخوف شيء غير مرحب به.

تتدخل عائشة وتقول :

إننا نعيش اليوم على حد قول فاروق جويدة :

"إننا نعيش تحت خط الخوف ؛لماذا نفكر دائما في نهايات الأشياء رغم أننا نعيش بداياتها، هل لأننا شعوب تعشق أحزانها ؟

أم لأننا من كثرة ما اعتدنا من الخوف أصبحنا نخاف على كل شيء ،ومن كل شيء حتى أوقات سعادتنا نخشى عليها من النهاية".

المجتمع العربي بصفة خاصة جدا يخاف ،إلى درجة الجبن ...

إلى درجة البسترة أين ينفصل عن الوعي والواقع والحقيقة وينتزع منه الضمير والإقدام جزئيا وأحيانا يكون منزوع الدسم كليا.

وعدته وسأفي بوعدي .

يبدأ المجتمع من فرد ثم أسرة ...

إذا سأختار طفلا أو لتكن بنتا أبدأ بها مشروع الكتاب .

ستتبناها مخيلتي مادامت الصفحة بيضاء ...

سأنجبها على دين الإسلام ...

سأتفانى في تعليمها .....

سأتفادى قوانين طرزان في تنشئتها....

سأجعلها ترفض أمثالنا الشعبية ...

لن أدعها تقرأ قصة سندريلا ...حتى لا يكون حلمها رجل ...

سأقرأ لها هذه القصة فور ولادتها :

سأل أحد الرجال عجوزا

كان يمشي بالطريق وهو يحمل مصباحا

وهو أعمى ؛لماذا تحمل مصباحا و أنت أصلا أعمى:

فأجابه : كي لا يصطدم بي المبصرون.

لأنه أحيانا يستبعدك الآخرون الذين يلقبون أنفسهم بالكبار من دائرة الإنجازات

ظنا منهم أنها لا يمكن أن تكون في متناول الأطفال .

سأصبح الآن مسؤولة؛ عن الطفلة التي سأنجبها ...

ستقل زيارتي لعائشة لأن رعاية الأطفال تحد عظيم ...

وخاصة على ورق ...

فالممرات متعددة ...

والأزقة والشوارع مخيفة ...

وأشد ما أخافه عليها أن ترمي الأزقة بأحد الكبار في طريقها.

ابتعت كتابا جديدا من شأنه أن يعينني على تربية طفلتي ...

رتبت حفلا كبيرا ...

قررت تسميتها "قدر" ...

وقع الاسم جميل ..

أمي وأبي سعيدين ...أخيرا أصبح لديهما حفيدة.

دعوت السيدة عائشة ....وحضر أيضا الأمير عبد القادر .. ..

كانت ليلة مقمرة ....فرحة مميزة ...بعيون عائشة لأنها من حاولت جاهدة كي أنجب قدر .

تشبهنا جميعنا ...

تعلقت منذ اللحظات الأولى بوشاحها ...وأحكمت إصبعها حول يدي

بدأت منذ ليلتها الأولى تعليمها الحروف ..

وأنشر النوتات الموسيقية على مسامعها ..

وأكثر الأوقات أرفع الآذان بأذنيها وأطمئنها بصوت القرآن قبل نومها ...

إنها تكبر سريعا ...

بدأت تدرس ...حفظها جيد ....تنتبه ...تحاكي ...تقلد ...

وضعتها ذات ليلة أمامي وأخبرتها ..

قدر لا أريدك نسخة من غيرك ..

أنت لم تعاني ... لم تولدي بمستشفيات العرب .

لم ينقلوا إليك أوساخ معداتهم الطبية ...

لم أترك الفرصة لأحد أن يحدد جنسك قبل الولادة ولا أرضك ولا اسمك.

أنجبتك دون أب وإخوة ....حتى لا يضايقك أحد ...حملتك بين يدي وحدي .

قبل ولادتك تعبت حتى أجهز لك الجنة لأني قررت أن تولدي ملاكا .

قدر انصتي لي جيدا ...

تجلس بهدوء أمامي ؛ تحدق بي وعيناها تبتلعان كل ما يحيط بي..

إليك عني ...قرأتها فأعجبتني وطبقتها فأراحتني ...احفظيها ...ولا تقلقي إن لم تفهميها ...المهم تذكريها ...

القاعدة:1

لا تشارك الآخرين الأخبار السيئة ؛ولا تتأخر عن نقل الخبر الجيد لمن يهمه الأمر.

القاعدة :2

لا تقل نعم بسهولة تمهل وحبذا لو أن تستبدلها بـ سأحاول .

القاعدة:3

ادخر من مصروفك شيئا لمكتبتك ؛لأنها الإرث الذي لن يفرق الإخوان ولا العائلة

.

القاعدة:4

إنه الاعتياد ؛أسوء ما قد يحصل لك.

القاعدة:5

ابتعد حين تشعر أنه غير مرغوب فيك .

القاعدة:6

لتكن مهمتك في الحياة قارئ ولا ترضى بأقل من ذلك.

القاعدة:7

واجب عليك محتما وأكيدا أن ترأف بنفسك من مشاق الدنيا وابتسم ما استطعت .

القاعدة:8

لا تكن سخيا في تقديم النصائح أو المواعظ التي غالبا ما تكون خاطئة .

القاعدة:9

لا تتعاطف مع الذين اختاروا الهلاك بأيديهم ؛لكنك تستطيع ان تشفق عليهم في الخفاء .

القاعدة:10

كف عن تضخيم الأخطاء الساذجة .

القاعدة:11

إذا لم تكن هناك حاجة إلى أن تتحدث مع أحدهم فلا تحاول أن تخلق حديثا ابق صامتا حتى لا ينتهي بك الأمر في قول ما يثبت حماقتك.

القاعدة:12

لا أحد يستطيع أن يحبك بالشكل الذي ترغبه دون أن تهيئ نفسك لتستحقه.

أريد لقدر أن تنشأ على غير الأطفال العاديين ؛ أريدها أن تعتاد الأشياء الغريبة ،

لا أريد حتى لطعامها أن يشبه طعامهم ولا لباسها أن يشبه ألبسة الآخرين .

لا يجب أن تكون قدر نسخة من الآخرين؛

سأعلمها قبل هذا أن تفهم كتاب الله؛

سأجعلها تهرب إليه كلما شعرت بالضيق؛

سأحصنها بالمعوذتين حتى لا تمرض كثيرا ولا تسلط عليها شياطين الإنس والجن.

لا أريد أن يجبرها أحد على الصلاة والحجاب ...

أريدها أن تعبد الله وتتعامل معه كحبيب

لأن المحب تجاه محبوبه مطيع ...

لا أريد أن أبعثها إلى الكتاب أو المسجد ...

لأحافظ على تقليد المجتمع بالتخلص من الأطفال بدفعهم للصلاة وهم مرغمون ؛ باكون ؛ ملابسهم متسخة فينشأ في صدورهم حقد تجاه الدين.....

لا أريد أن أدخلها المطبخ باكرا ...لازلت صغيرة ...وستملين من السكاكين عندما تكبرين .

لا أريد يا قدر أن تحترقي باكرا ...يفسد تسريحة شعرك البريئة ....ويذيب كل ألعابك ؛ ويحرق شعر دميتك ...

لا أريدك أن تجريها معك إلى المطبخ ؛ فتكبر هي الأخرى؛

قدر يجب أن أحكي كل ليلة كي تكبري بسلام .

كانت السيدة عائشة تفرح كثيرا ؛ برؤية قدر وهي تكبر .

وكل علامات التفاؤل تبدو واضحة في تصرفاتها ؛

بدأت تكبر ...إنها تنجح في تغيير مزاج عائشة إلى الأفضل كل يوم .
أرادت قدر أن تعرف من تكون السيدة عائشة ؛ إنها تناديني باسمي وتناديها بأمي.
غريب إنها تجمع بيننا جدا ...

تتساءل أيضا عن الأمير عبد القادر ...تصفه بكثرة وبطريقة مبالغ فيها ....من الواضح أن عائشة تحكي لها عنه بكثرة .
كالعادة أهرب من إجابة قدر؛ كنت سأكتفي بالقول إنها صدفة تعلمت منها الكثير .
أهرب من أسئلتها ...كل ليلة بقصة لكنها ليست كقصص الأطفال أو قصص ما قبل النوم ..
قدر لا ترهقني كما يرهق الأطفال أولياؤهم ؛ تحب كل ما هو حلو كغيرها من الأطفال ؛
أكثر ما يميزها أنها خلقت اجتماعية وتحب لم شمل العائلة حول مائدة الطعام شيء يفتقده مجتمعنا حاليا ؛ لأننا لم نعد نجتمع حتى حول مائدة رمضان .

سارعت قدر إلى حضن السيدة عائشة ...

وسلطت عينيها البنيتين على الكتاب الذي بيدي ...

إنها تنتظر بشغف كي أحكي لها ..

لكن لن أجيبها ...حولها ...بل سأحكي لها شيئا أنسيها به .

تصر كثيرا ...أصمت طويلا ...أحملها بين يدي وأضعها في فراشها

أطلب منها أن تنتبه إلي لأني سأحكي لها شيئا جميلا ستتذكره يوما ما

كانت هناك طفلة لديها تفاحتين ؛ وكانت تمسك كل تفاحة بيد ؛ جاءت أمها وطلبت منها أن تعطيها إحدى التفاحتين ، فنظرت الطفلة لأمها بضعة ثوان ثم قضمت إحدى التفاحتين ، فنظرت الأم لابنتها بخيبة أمل ...

حيث لم تتوقع الأم هذه الحركة من ابنتها التي تحبها وترعاها وعندما همت الأم بالانصراف فإذا بالبنت تناديها وتعطيها إحدى التفاحتين وتقول ماما هذه التفاحة هي الأحلى .

بدا الحزن على وجه قدر وسألتني لو قمت بنفس السلوك ما كنت لتفعلي ؟

أصابني تفكيرها بالتسمر والتحجر مكاني ؛ بصراحة لم أتوقع هذا السؤال ... أجبتها : لن أسيء الظن بك أبدا ؛ بإمكانك أن تقضمي الاثنتين معا إن شئت ...أنت طفلة ومهما فعلت لن أؤاخذك ...

فرحت قدر جدا عيناها تلمعان فرحا ...

طرحت عليها سؤالا مماثلا ؛كانت أسرع مني في الإجابة ..

قالت : أدعك أنت من تقضمين وتختارين

أخلاقها تجعلني فخورة جدا بها ....

يبدو أن الليل قرر أن ينظم لقدر ويستمع ؛ لقد طالت الحكاية والوقت لا يزال مبكرا ..

استأنفت السؤال حول عائشة ؛ سأستعين بالقصص مجددا...

كان هناك رجل أشيب يدخل القاعة في كلية الآداب ؛ وقف الطلبة ظنا أنه الدكتور لكنه أخذ مكانه بينهم التف الطلاب مستفهمين ؛ فقال : أنا إسكافي .

أعمل بتصليح الأحذية عندي سبعة أولاد ومهندسين وولد ضابط وبنت صيدلانية في إحدى السهرات العائلية ؛ كان أولادي يتحدثون في موضوع فتدخلت مشاركا ؛قال لي أحدهم بابا عدم المؤاخذة ، نحكي بموضوع علمي ما بتعرف فيه حضرتك ؛ أحزنني جوابه في اليوم التالي ؛ اشتريت كتب الصف التاسع وأصبحت أدرس في الدكان دون علم أحد ونجحت ودرست البكالوريا ؛ونجحت ولا أحد يعرف واليوم باشرت المرحلة الجامعية وسأدعو أولادي بعد التخرج لأقول لهم هذه الشهادة قد تسمح للإسكافي الذي رباكم وزوجكم وعلمكم أن يشارككم الحديث .

تذكرت أبي ....

لم أستطع منع الدموع أبدا ...كان جميلا كنور الصبح ؛ ولا يزال أبي يتعب لأجلي ...أبي نعم الصديق والرفيق ...لا يزال أبي الرجل الذي خلق من نور .

للأسف قدر لم تحظى بأب مثل أبي لأن أبي خلق مرة واحدة فقط ولن يتكرر خلقه مرتين .

بدأ النعاس يسدل ستاره على عيون قدر لأنها قد تعبت ؛ خبأتها جيدا عن كل ما يفسد نومها.

أخيرا هربت من سؤالها المخيف ؛ حول السيدة عائشة ؛ والذي لا أملك له إجابة أنا أيضا.

نامت السيدة عائشة ؛ لم يبق سواي مستيقظا، إن قدر تسرقني شيئا فشيئا .

لكن لا يهم ؛ إنها تقتل فراغي وتزيد من مطالعتي ...أصبح ارتيادي مكتبة الأطفال ؛أكثر من ارتيادي لأي مكان آخر.

قدر تهتم لما أحكيه لها أكثر من اهتمامها بأكلها ولعبتها المفضلة ؛ لأول ليلة تنام باكرا ....إنه تأثير القصص ؛ لأنها مصابة بهوس التأمل والتفكير ليلا ...

تستمتع مع رفيقاتها بالمدرسة كثيرا ؛ وتشاركهم ؛ روتين الأيام .

لكن أحس أحيانا أنها تمل من حياتهم وأسلوبهم قليلا ؛ هناك الكثير من السنوات الضوئية التي تفصل بينها وبينهم .

اختارت صغيرتي ...صديقة هي الأخرى مختلفة قليلا كانت يتيمة الأم ؛ سألت قدر ذات يوم لماذا اختارت مريم من بين الجميع .

إجابتها الأولى أبكتني والثانية شجعتني ..

الأولى قالت الطيور على أشكالها تقع كل واحد يختار من يشبهه .

الثانية لأن مريم يتيمة أحكي لها عن أمي وتحكي لي عن أبيها ؛

خفت لحظتها أن أكون قد ظلمت قدر لأنني رفضت أن يكون لها أب .

لكن تذكرت أو يعقل أن يظلم الله سيدنا موسى عليه السلام ؟

لا يمكن لهذا أن يحدث أبدا .

إنه القضاء والقدر...

هكذا فضل الله واختار أن تكون حياة سيدنا موسى عليه السلام دون أب لحكمة لا يعلمها إلا هو.

تعبت جدا وأريد أن أنام ؛ عزيزي النوم تعلم جيدا أن الأم من يستيقظ وآخر من ينام .

لا أقوى على الذهاب للعمل ؛ أشعر بدوار في رأسي ؛ بالكاد أستطيع الوقوف ...لا أعاني من مرض محدد ولا أتذكر أنني نمت وهناك ما يؤلم بجسدي .

لا أستطيع الذهاب للعمل وهذه ثاني ليلة أبيت فيها عند السيدة عائشة وهذه المرة رفقة ضيف صغير قدر.

في ليلة أخرى غير مخطط لها أبدا ...

تسألني بعدما نام الجميع ومن غير عائشة يطرح أسئلة تصيب بالشلل المؤقت وربما حتى الدائم ..

تسألني كيف يتخلص الواحد منا من عابري السبيل بحياته ؟

سؤال في حد ذاته قضية ...يستهلك التفكير ويطرد النوم لأيام ...

تعرفين هناك عنوان يحمل هذه القضية ربما يبرر لك ولي لم دوما

نحظى بالسيئين من عابري السبيل ...

"قل وداعا" ...

فالرحيل هو أول مراحل الشفاء ....

من مرض عضال في أقاصي الفؤاد ..

ولا تلتفت إلى ماضيك ...

حتى لا تكون استدارتك سببا لفتح جرح أخر ...

خدرته طويلا إلى أن التأم ...

وتخلص من الصور ...

حتى لا تكون سببا للهبوط الاضطراري ..

إلى مكان لم يعد له معنى ...

وغير قهوتك المفضلة بأخرى أشد مرارة ..

فأحيانا يكون الطُعْمُ في الطَعْمِ..

إنها الوصفة سيدتي كاملة حتى تتقني فن إدارة الصدمات.

ترد بواحدة من أقوى رسائلها :

كان كافكا يتنزه داخل أحد الحدائق ؛ فوجد طفلة تبكي بحرقة ؛ فسألها عن السبب ؟؟؟

فأخبرته أنها فقدت دميتها ..

قال لها كافكا : دميتك لم تختفي بل سافرت وستعود .

فقالت الطفلة : وكيف عرفت ؟

قال : لقد أرسلت لي برسالة وسأحضرها لك في الغد ..

عاد كافكا وقد كتب رسالة من الدمية وسلمها للطفلة

بقي يكتب لثلاثة أسابيع يوميا ومع مرور الوقت لم تعد الطفلة تتذكر لم كانت حزينة ؟

يقول بعد أن أورد هذه القصة :

لقد أصبحت هذه الطفلة تمتلك قصتها ؛ وعندما يكون شخص ما محظوظا بما فيه الكفاية سيعيش داخل قصته

وتختفي آلام هذا العالم وتزول أحزانه

وأقول أنا :

لكي تختفي الآلام يجب أن نحب وحين نحب سنعيش قصة وحين نحارب تختفي وحين نقرأ ؛ وحين نحزن بل وحين نموت سوف تختفي كذلك ؛ لأننا نعيش آخر قصة .

بينما قدر تلعب

أفكر كثيرا بتربيتها وسعادتها ؛ أخاف أن تمنعني الظروف أن أخصص لها وقتا كافيا

أخاف أن يسرق العمل الكثير من وقتي على حسابها .

ليست حساسة بقدري

ولا عاطفية وتحب القصص كثيرا ..التي لا تروى للصغار طبعا

تحب الوطن بشدة ...تحب الحديث عن الثورة كما تسأل عن الامير عبد القادر بشكل مبالغ فيه .

أدرك جيدا انه سيأتي اليوم الذي لا أستطيع فيه التحكم بقدر .

واختياراتها وآرائها وأصدقائها ؛ لكن أريد أن أترك شيئا في صدرها تؤمن به مثلا كأن تكون مسؤولة عمن تكون ؛ وأن الحياة منوطة بما تضعه من أسس وقواعد وقوانين ...و أن الحياة لا تحتاج سوى ابتسامة كي تستمر .

أريدها أن لا تخجل كونها أنثى ...

لا أريدها أن تتعلم أن أحلام المرأة عورة ..

أطمح لقدر أن تقف على مبادئها أكثر مما تقف على رجليها ..

لعل أسلوبي في الحياة قد يساعدها بشيء .

ربما ستمدها عائشة بكل ما تحتاجه كي تواجه الحياة .

تقول عائشة أنه قبل تربية قدر ؛ يجب أن أشرح لها معنى كلمة "مجتمع" ؟

لكن هل أعرفه بلغة الغرب المتحضر أم بلغة الشرق المتخلف ؟

من الصعب أن أكذب على قدر إن عرفته بالمفهوم الأول ومن الخطير أن أقدمه لها بالمفهوم الثاني .

ستصاب بالصدمة ربما ستفقد وعيها ..

لأنها ولدت على فطرة الإسلام ؛ هذا الدين الذي يمنع الكذب والسرقة ؛ هذا الدين الذي ارتضاه لنا الله على أساس المعاملة الحسنة والأخلاق الطيبة .

المشكلة أنني قصصت لها كثيرا عن الرسول صلى الله عليه وسلم

حدثتها أنه أثار إعجاب أكبر العلماء والمؤلفين والباحثين بالعالم ؛

لا أستطيع الكذب على قدر بما أنني أردت لها التربية الصالحة

لا يجب أن أكذب على قدر في الأخير ...

ليس منا من كذب إذا حدث وأخلف إن وعد وخان إن أؤتمن .

تعبت قدر بعد لعب جميل أين فضلت النوم على الأكل ..

لكن مع كل هذا لا يمكنها أن تنسى أسئلتها حول عائشة ولا فضولها نحو القصص كل ليلة ...

صغيرتي هذه الليلة سأحكي لك واقعا وحقيقة وليست قصة كالعادة مثل قصص شهرزاد وشهريار ...

يجب أن تفكري بشأن هذه الحقيقة وتحاولي انقاذ نفسك من المجتمع الذي ستكتشفينه مستقبلا .

يبدو عليك الذكاء الشديد والفطنة وأنت لازلت صغيرة لهذا زادت مخاوفي ..المجتمع العربي لا يرحم الأذكياء ؛ لا يرحم من يفكرون بعقلانية ؛ لا يرحم الواقعيين ؛

يجب أن تتجندي وتتشكل لديك مناعة وإلا سأكون حينها أما غير صالحة .

أنصتي لي قدر ..

يحكى أن هناك رجل أبيض البشرة ؛مشوبا بحمرة حكموا عليه بالسجن المؤبد حتى يعدم فيما بعد ...لست ادري ربما لأن وقائع هذه القضية ستكتبها المحكمة أو مرافعة الإدعاء العام أو ستحررها يد القاضي ...قتل الناشر المشهور على يد الكاتب المغمور .

لأنه أراد أن يمسخ هوية الأمة وكان الكاتب القاتل رجلا طيبا للغاية رجلا يحمل في صدره قلبا حنونا شغوفا مشفقا ؛ أصيب الكاتب بلوثة مفاجئة في عقله ؛ وكان السبب الرئيسي في هذه اللوثة نشرات الأخبار الرئيسية ؛ حيث كانت تحمل في طياتها وقائع عجيبة للغاية ؛لا تستسيغها الفطرة ؛ ولا تقبلها العقول قتل طفل مسلم ؛ ذبحت طفلة مسلمة ؛ اغتصبت امرأة مسلمة ؛ ديس على المصحف الذي هو دستور الأمة المسلمة ؛ خانت دولة عربية مسلمة شقيقتها الدولة العربي المسلمة الأخرى لصالح القوى الغربية .

لم تحرك هذه الأخبار ذرة واحدة في قلب الأمة المسلمة ؛ بل حركت أجساد نسائها عبر حفلات الرقص والعري....

وعلى الهواء مباشرة بأموال إسلامية وعلى قنوات فضائية يمتلكها أناس يحملون أسماء عربية إسلامية ..

كان المنتقدون في الأمة يسعدون لتضميد جراح أمتهم بالرقص وتسكين ألمها بالعري ورفع شأنها بالدعارة الجسدية والفكرية وللقصة بقية وإن طالت...

لا يبدو على قدر الاستغراب أو التعجب ..

إنها تحميني الآن من الخوف ؛ إنها تهذب كرهي تجاه الهرمون العربي والفكر البليد .

تستأذنني قدر كي تقص لي قصة قرأتها في حديث معلمتها في المدرسة مع أحد زميلاتها في العمل :

يقال أن هناك رجل معتوه صاحب ؛ مال عظيم دهن مبلغا من المال بالسم القاتل وتبرع به لجمعية خيرية كي توزعه على الفقراء ليتخلص منهم ...

فمات والي المدينة و30 نائبا برلمانيا ووزيرين و3 مدراء مكاتب وزراء ؛ وزوجة مدير المنظمات الخيرية ولم يصب أحد من المحتاجين بأذى .

إذن قدر لا تدرس فقط إنما تجيد فك حديث الكبار ...

أبديت إعجابي بقصتها كثيرا ...قبلتها ثم تركتها لتنام .إنها طفلة مختلفة ..أنظر إليها الآن وهي نائمة ...

تصر دوما أن أضع لها عطرا ...قبل أن تصلي معي أو تنام .

نسيت أن أعلمها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : حبب إلي من دنياكم الطيب و النساء وجعلت قرة عيني في الصلاة ...

تفرغ من وجبتها في صحن صديقتها بالمدرسة ولم أخبرها يوما أنه صلى الله عليه وسلم قال إفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة .

قدر مصابة أيضا بهوس القراءة

أحسست بنبضها داخلي لأول مرة ...

لكن لم يخطر ببالي أنها كانت تنصت جيدا .

تخبرني أن المشكلة لا تكمن في المجتمع ؛ بل تكمن في أفراده وأدوارهم ؛ لم أحدد المفهوم الذي تمتلكه برأسها وبمخيلتها ؛ لكن سأكبر من جديد على يدي قدر ...

لا بأس أن يتعلم الأولياء من أبنائهم ؛

تسترسل قدر بالشرح أكثر قائلة بكل هدوء وتركيز تام :

عندما أراد الصينيون أن يعيشوا في أمان بنوا سور الصين العظيم واعتقدوا بأنه لا يوجد من يستطيع تسلقه لشدة علوه ولكن خلال المئة سنة الأولى ؛ بعد بناء السور تعرضت الصين للغزو ؛ ثلاث مرات وفي كل مرة لم تكن جحافل العدو البرية في حاجة إلى اختراق السور ؛ أو تسلقه بل كانوا في كل مرة يدفعون للحارس الرشوة ثم يدخلون عبر الباب ؛ لقد اشتغل الصينيون ببناء السور و نسوا بناء الحارس

فبناء الإنسان يأتي قبل بناء كل شيء وهذا ما يحتاجه أفرادنا اليوم .

يقول أحد المستشرقين :

إذا أردت أن تهدم حضارة أمة ما فهناك وسائل ثلاث ؛

هدم الأسرة

والتعليم

وإسقاط المرجعيات .

لكي تهدم الأسرة عليك بتغييب دور الأم اجعلها تخجل من كونها ربة بيت .

ولكي تهدم التعليم عليك بالمعلم لا تجعل له أهمية في المجتمع وقلل من مكانته حتى يحتقره طلابه .

ولكي تسقط القدوات والمرجعيات عليك بالعلماء اطعن فيهم ؛ قلل من شأنهم شكك فيهم حتى لا يسمع لهم أحد ؛ ولا يقتدي بهم أحد .

فإذا اختفت الأم الواعية والمعلم المخلص وسقطت المرجعية فمن يربي النشء على القيم ؟

يجب أن يتوب العرب حتى يصبحوا أمة ومجتمعا صالحا من جديد .

ربما جاءت قدر كي تغير القدر ؛ ربما سينشأ مجتمع جديد مرجعيته أفكار طفل يؤمن بالشفافية والعفوية والصدق .

يجب ترك النوم للكبار

يقتصر الحقد على الكبار والبلادة والخبث أيضا أما عن البناء والصدق فدع الأطفال يشيدوا المجتمعات ويمارسوا البناء والتصميم يخطئوا ويصيبوا ؛ ابتداء من تركيب لعبة

وغدا سيركبون حياة الكبار بشكل صحيح .

يقول آل باتشينو :

"لا أفهم كيف يستطيع الناس الكذب في العلاقات والادعاء بالحب وأنا لا أستطيع أن أقول "مرحبا" لشخص لا أستلطفه ؛

الآن بدأت أفهم كيف يتهذب المجتمع .

بدت الليلة كأنها ليلة مع أهل الكهف ؛ لم يتسنه من ظلام الليل شيء

التقيت السيدة عائشة ..

أخبرتني أنها رأت بمنامها رؤية تتعلق بقدر ..

على العادة أخاف من الأحلام والرؤى وأكره التفاسير ..

أردت معرفة ما رأته بمنامها ...

رفضت إخباري ..اكتفت بظهار اطمئنانها تجاه ما رأت ؛

طمأنتني أن قدر ستكون بخير لكنها ستبتعد في يوم من الأيام .

توجهت للعمل كعادتي ..

بعد أن أودعت قدر بمدرستها ...التي تبدو أصغر من حجمها كثيرا .

بينما أنا في العمل حتى وقف أمام مكتبي ما ينبئ أنه صديق قديم ..

بدت عليه علامات الكهولة ؛ إن لم أقل الشيخوخة ولا يزال الشباب يعتني بملامحه جيدا ..

كان الشخص الوحيد الذي لازلت أذكر اسمه ؛ إنه مدير المكتبة الجامعية السيد مختار ؛ كان من أطيب الناس و أشدهم حرصا على حماية القيم والمبادئ ...

كان يفهم كل ما يتعلق بالحرية والتمرد والثورة ...

يفهم كثيرا بالذوق والإبداع والخيارات المفارقة ..

كان يمنحني حرية التنقل بين الكتب كما أشاء ؛ لدرجة كدت أن أبيت بها يوما

...أذكر أنني نمت بين أحد الكتب يوما .

استمعت رفقته برائحة الأوراق التي تسد رمق الفكر الجائع ؛ كان يسأل باستمرار

عن تواجد زوجته بالمكتبة ؛ تعجبت :

ألا يتصل بها ؟

سألته ... أومأ برأسه : أن لا ؛ لا شيء من هذا القبيل يحدث ....

قالها بكل أسف وحزن ..أبديتي أسفي ....بدا أنه يكره التأسف والاعتذار ...

من المؤسف أن يبتلى شخص مثله بزوجة مثل ياسمين ..امرأة باردة متعجرفة ...متكبرة ....

إنها التي تضحك بوجهي كلما تسربت إليها فكرة أنني أنوي أن أكتب .

طيب..

يا سيدي لا تشغل بالك كثيرا ؛ إنها ليست موجودة ؛ إنها لا تأتي منذ أيام .

لكن من المهم جدا يا سيدي أن تختار امرأة تناسبك ؛

يقال أن مالك بن نبي كان يرتاد مكتبة باستمرار ويسأل عن الكتب ؛ كان كلما يسأل كتبا يخبرونه أنها معارة ؛ استعارتها سيدة تقرأ كثيرا فسأل عنها ودقق ثم تزوجها ؛ يجب أن تتزوج عقلا قبل أن تتزوج جسدا .

تذكرت كانت بحوزتي ورقة مهمة جدا ؛ بل أوراق كتبتها منذ سنوات وكنت أنتظر

شخصا مثل مختار كي يحملها إلى حيث يجب أن تتواجد

كنت أود أن أسلمها له عندما كنت لا زلت أراه يوميا .

لكن خانتني الشجاعة هناك .

كنت الوحيدة والشاهدة الأولى والأخيرة على مسرحيات عديدة وأفلام كثيرة ؛

أصيب شريط الحياة بخلل فني وتقني فقررت أن أكتب المشاهد المتبقية .

سلمته الورقة .

طلبت منه أن يفتحها عندما يكون لوحده؛ وجودي معه قد يخلق اضطرابا طفيفا.

طلبت أيضا منه أن ينسخ منها الكثير ويجعل في كل كتاب شيء منها

كدليل على صوت كان هناك بتلك المكتبة.

سأعلقها إن تطلب الأمر حتى بمدخل المدرسة التي كنت أرتادها والتي لم ألتفت

إليها حتى عندما تخرجت وانتهى كل شيء .

تكرر لقائي بمختار بسرعة ..

ما هي إلا أيام وهاهو أمامي ...

كنت بصدد الذهاب لعملي ...فاجأني عندما وجدته أمام الباب ...

كان سعيدا جدا ..

نظراته تسرب إلي شيئا من الاطمئنان ..

أخبرني أن المدرسة ستكون بخير ...

سنتعادل ...

ابتسمت وأخبرته ببساطة حكومة بأسرها سقطت فكيف لا تخاف المدارس .

على العادة السيد مختار لا يطلب شيئا من أحد ؛ مهما كانت مكانته والعلاقة التي تربطه به ..

لكنه طلب مني شيئا أكتبه عنه ...يحتاجه كمخدر لأحدهم ...

لم أفهم يقول إنه له وتارة يستخدم ضمير الغائب المذكر ...

إنه متردد قليلا ...ولا يحب إظهار ضعفه أبدا ..

لم أكن أعرف ما سأكتب ..

أتذكر أنني كتبت سطرين أو ثلاث وسلمتها له فكان ممتنا جدا .

لكن لم تكن تلك السطور لترضيني ...لأني أردت أن أكتب له شيء يصلح من علاقته بزوجته شيء يذيب الجليد بينهما .

شيء يجبره على الصبر والكفاح ..

لم أريد لأكتب له هذه العبارة ..

سيد خانه الحظ فتبرع ببدلة زفافه وذكرياته

لما سألوه عن السبب أجابهم أنه قد اشتراه عن طريق الخطأ ..

خطأ بالمشاعر وتقدير المسافات والكلمات ...

وعندما اكتشف خطأه قرر أن يتنازل عنه لأنه لن يكون عريسا ولن يكون له أبناء ولا أحفاد كي يرثوا بدلة الزفاف .

أخبرته أنني سعيدة جدا بجانبه و أنه ليس شخصا سيء كما يعتقد لمجرد أن زفافه فشل .

أتنمى أن نلتقي مرة أخرى وبسرعة

وأرى بجانبك الكثير من الأمنيات وفي يدك حفيد تقبض عليه بإحكام لأنه كان أمنية مستحيلة .

انتهى الدوام وعدت للبيت ..

تبدو كل العائلة سعيدة ...ما سبب كل هذه السعادة

أخبرتني أمي أن قدر قررت أن تصوم ..

ماذا بدأت تكبر إذا حتى تقرر الصيام نسيت أننا بمنتصف شعبان

كيف لم أنتبه ....

أن رمضان على مقربة منا ولا تفصلنا عنه سوى أيام ..

لكن كيف قررت قدر أن تكون مستعدة للصيام متى قررت أن تكبري هكذا ؟

كنت متعبة جدا ...

أعلم أنني قصرت بحق السيدة عائشة ..

لكنها ستتفهم إنها تحب قدر كثيرا ...

بدأت حكايات قدر تقترب صرت أخاف قدوم الليل لأن الصغيرة لا تدعني وشأني ويجب أن أستمر بحكايات ألف ليلة وليلة حتى لا تسألني مجددا عن عائشة والأمير عبد القادر .

هل سأبدأ بالحكي لها عن كيفية انتقاء الحب وشريك الحب أم أنها لازالت صغيرة ...

لأن الشلل الذي يعانيه جل العالم هو فيروس الحب .

لقد تسمرت قصة مختار برأسي وترفض أن تغادرني ..

رجل مثله لا تناسبه امرأة مثل ياسمين تلك أبدا .

لم تنم قدر بفراشها بل قفزت إلى حضني ..

أخبرتها لحظتها أن لا تعتمد على أحد في حياتها

حتى أنا ربما سأكون سيئة في يوم من الأيام ...

ربما سأخطئ يوما في حقها بكلمة أو بتصرف فتسقط الصورة الملائكية التي رسمتها عني ..

أخبرتها أن لا تجعلني مصدر سعادة وكذلك الناس لأنه من يعجز عن إسعاد نفسه لا يمكنه أن يسعد غيره إلا إذا رقص على أحزانه

عينا قدر ...

جميلتين ...

يجبرني تسمر عينيها بي على إتمام حديثي ..

أعدك أنني سأصوب أخطاءك ..

لن أتحكم بذوقك ...بصديقاتك ..

بألوانك المفضلة ...بأكلك المفضل ...بميولاتك

بخياراتك ...بأسلوبك ..بتفكيرك ...بأحلامك

لن أتدخل بحياتك ...لن أتجسس على هاتفك

لن أقارنك بغيرك أبدا

لأنني أؤمن بالاختلاف ونظرية المفارقة ..

والأهم من هذا كله يا صغيرتي أنني لن أقزمك ..

ولن أشحنك بالسلبيات ...لن أحكي لك عن الخلافات العائلية

وجرائم الأقارب ..

سأبيد بذرة العداوة والتمييز الدموي والخَلقي داخلك .

سأحرق بداخلك نظرية النشوء والارتقاء .

انصتي لي قدر فكري بالكلام ولكن لا تفكري كثيرا كي لا تغرقي

إن الحياة بأكملها سوى حلم

الصديق والعدو كلاهما جزء من الأحلام والكوابيس

الاستسلام والإرادة كلاهما جزء من النظريات والفلسفات والعقائد

الكنائس والمساجد كلها جزء من الديانة والمنام

الأحلام كالإنسان تولد بقدر وتموت بقدر

الشيء الوحيد الذي يجب فعله

الاستيقاظ ...ليس بمقدور أحد أن يوقظك ما لم تقرر أنت ذلك

إنه قرارك لا داعي للركض وراء أية معتقدات خارجية .

كي تتمسك بها ؛لأن كل المعتقدات مزيفة

لا داعي إلى البحث عن فلسفة الحياة والوجود

فالحياة لا تتسع لصدق التجربة

فلسفة صغيرة ووحدها صحيحة في هذا الكون

أنا أقدر نفسي وأحس بذاتي إذن "أنا موجود".

صغيرتي العبارات جميلة والمعاملات أجمل ..

أخفي طاعاتك عن البشر ...ولا تظهري إلا المعاملات ..

لا تخبري أحدا من أصدقائك أنك تصومين رغم صغر سنك

انتبهي للدين جيدا يا قدر حتى لا يتهموك بالإرهاب والتطرف.

توجهت في صباح الغد رفقة قدر إلى السوق

كنت متوجهة إلى محل السيدة "كيراز" لأنها وحدها من تملك متجر الملابس التي

تستهوي صغيرتي ...

وعلى حين غرة لمحت عند طرف الزقاق ..

رجلا بالكاد أعرفه ..

حاولت ملامحه الاختباء لكنها فشلت .

إنه الوجه الذي تذكرت معه الخيبة والخذلان الذي تذوقته في يوم من الأيام .

إنه الشخص الذي اكتشفت بعد زمن أننا لا نصلح لبعض

هو لا يصعد و أنا لا أنزل ...

لقد كنت كما قالت إحداهن يوما .....

امرأة من سلالة النسور حاولت جاهدة تعليمه الطيران لكنه كان من سلالة البطاريق .

كان يبدو كمتشرد من بعيد

كانت ثيابه رثة منذ أول لقاء بيننا تشبه روحه إلى حد بعيد

بدا كأنما بيننا عمرا طويلا

أمامه طاولة صغيرة ..وعليها مجموعة من الأوراق وبعض القطع النقدية المتسخة ..

تقدمت نحوه بكل ثقة لأنني أدرك أنه لن يتعرف إلي .

لست الشخص الذي تغيره المسافات ...والفراق والبعد

في القديم كان يبدو قويا ...لكنه اليوم ضعيف جدا مشرد ومريض

وقفت أمام الطاولة حملت بعض الأوراق

إنها كلماتي أنه خط يدي ...ماذا يفعل بها ؟

وخاصة تلك التي كانت بيده إنها الورقة الأخيرة وخطي الأخير

لم أصدق

إنه فاقد للذاكرة ...يستجدي المارة حتى تعود له ذاكرته إن أوصله أحدهم إلى

صاحبة الخط .

قدر أيضا مندهشة

لم أكن أريد ان أدخل لها الشك والريبة

لكن فات الأوان قليلا ...

بدا وكأنه يحتاج صاحبة هذا الخط حتى يتمكن من الشفاء والتنفس من جديد .

غادرت مسرعة وقدر لم تفهم شيئا

أنا أدعو الآن حتى لا تسألني من يكون ؟

اشتريت لقدر فستانا جديدا يشبه لون عيونها كثيرا

حاولت تضليلها عن الموضوع وما رأته وسمعته قليلا ..

تشكرني بشكل مبالغ فيه وتسبب لي السعادة المفرطة ..

إنه وقت المباراة تتصل بي أمي كثيرا لأنها تحب أيضا المنتخب الوطني تماما كجدتي وردة رحمها الله

كانت جدة بروح رياضية ملفتة للنظر ..

كانت زوجة وأختا وأما وجدة رائعة جدا ...

قبائلية جميلة جدا ..

جدي أيضا رجل مميز رحمة الله عليه

ضيع حقه بالبلد وضيع البلد حقه ...

لم ينصفه أحد ... لم يعش كثيرا ...عاش حقيقة المجاهد والمدافع عن وطنه بينه وبين نفسه فقط ..

يبدو أنني لن أبلغ المنزل في الوقت المناسب ...

هذه الصغيرة أيضا تحب الرياضة ...تسرع في خطواتها كثيرا وتجبرني أن أجري مثلها ..

تترك قدر يدي وتجري نحو أبي ..

تناديه أيضا بأبي ضمها بين ذراعيه وكان قد ضمها بين ذراعيه كل البيت ملتف حول التلفاز ...

ما كل هذه الوطنية ...لست أدري لم تظهر وطنيتي فجأة إلا في موقفين ..

الأول ..إذا أحسست أن هذا الوطن المغلوب على أمره مهدد وخاصة في كرامته

...

الثاني ..في مباريات كرة القدم ...

تحقق أخيرا للمنتخب الوطني نجاح مميز ....لم نلتقي به منذ سنوات ...ببساطة تغيرت الخطة ببساطة مدرب وثق بلاعبيه ؛ أعطاهم قلبه فأعطوه الدم .

هذا ما ينقص الجزائر ...تحتاج إلى قلب يجيد ضخ الدم في أوصالها حتى لا تعيش تحت وطأة الأجهزة وأن لا تتعفن في غرف الإنعاش .

تحتاج الجزائر إلى أفراد لا يصرخ الواحد فيها بوجه الآخر

تحتاج إلى قلوب تجيد الإحساس وذاكرة لا تتعب ؛ لا تنسى ؛

ذاكرة متصالحة مع الماضي ...

لا تبني مستقبلا مقابل بيع التاريخ والتراث ...

تحتاج الجزائر من يؤمم بقاياها التي تتناثر خارجا ..

تحتاج إلى راحة نفسية عظيمة ...

إلى قائد لا يربطها بكل ما يتعبها ...ويرهق أرواح موتاها .

تعبت اليوم كثيرا رفقة قدر ...

وأنا في طريقي إلى غرفتها أين سأساعدها بجلب النوم إلى عينيها

وددت أن تحكي لي صغيرتي بطلب مني وإصرار ..

كما أني وعدتها أن آخذها غدا معي عند السيدة عائشة ..

سنتبادل الأدوار الليلة ..

تقول قدر أن هذه القصة الخيالية القصيرة حكتها لها معلمتها في المدرسة تبدو أنها مدرسة صالحة :

في يوم من الأيام جاء الموت إلى شخص وقال له يا صديقي اليوم يومك ؛ وقال الشاب : لكن لست مستعد

الموت : ولكن اسمك هو التالي على القائمة

الشاب : لم لا تجلس لأحضر لك شيئا تأكله قبل أن نذهب .

الموت: حسنا فأعطاه الشاب طعاما فيه منوم ؛ فأخذ الشاب اسمه ووضعه في نهاية القائمة ؛ بعد أن استيقظ الموت قال:

لأنك كنت طيبا معي سوف أبدأ من نهاية القائمة .

توقفي قدر ...

هل وصلك المعنى الصحيح من هذه القصة

تبتسم قدر وتقول : أن معلمتها حزينة جدا ؛ لأن الحياة تؤذيها بشدة

ولماذا تحكي لك أنت بالذات ؟

أنت صغيرة جدا عن مثل هذه الحكايات .

أنت لا تـ....؟

تضع قدر إصبعها الصغير وتحكم عليها حتى يخرج حرف منها

تخبرني أنني أنا من علمها أن تنصت بقلبها للعيون التي يتضح فيها ظل الدموع

وتتأرجح بها الخيبة .

بدأت أخاف على قدر ...

لطالما كانت الطيبة ..

لا أريدها أن تدفع الثمن الذي دفعته منذ زمن بعيد .

قدر أرجوك تخلصي من الحجم الهائل للطيبة التي داخلك

وبسرعة يا صغيرتي ...

تتسع عيون قدر ...تمسك طرف شعرها الأشقر الطويل وتداعبه

كأنها أحست بالذنب بعد أن أبديت ذلك التعجب لما حكته لها معلمتها و

تفاعلت معه ..

أكبر جريمة بالحياة أن تنضج باكرا ..

أن تتبعي نفس الخطى التي تجدين المجتمع يمشي عليها ...

أخاف أن تجعلك الطيبة المفرطة ضمن جماعة "هذا ما ألفينا عليه آباءنا "

قدر أنصتي لي جيدا ..

هناك مجموعة من العلماء وضعوا خمسة قرود في قفص واحد ؛
وفي وسط القفص يوجد سلم ؛ وفي أعلى السلم هناك بعض الموز
في كل مرة يصعد أحد القرود لأخذ الموز ؛ يقوم العلماء برش باقي القرود بالماء المغلي بعد فترة بسيطة ؛ أصبح أي قرد يحاول الصعود لأخذ الموز ؛ يتعرض للمنع والضرب من الآخرين حتى لا يتم رشهم بالماء المغلي .

بعدها قرر العلماء أن يقوموا بتبديل أحد القرود الخمسة ويضعوا مكانه قردا جديدا و أول شيء قام به القرد الجديد أنه صعد السلم ليأخذ الموز ...

ولكن فورا قام الأربعة الباقين بضربه وإجباره على النزول بعد عدة مرات من الضرب فهم القرد الجديد بأن عليه أن لا يصعد السلم مع أنه لا يدري السبب . بعد ذلك ..قام العلماء بتبديل أحد القرود القدامى بقرد جديد ؛ وحل به ما حل بالقرد البديل الأول حتى أن القرد البديل الأول شارك إخوته بالضرب وهو لا يدري لماذا يضرب وهكذا حتى تم تبديل جميع القرود الخمسة الأوائل بقرود جديدة ؛ حتى صار في القفص خمسة قرود لم يرش عليهم الماء المغلي أبدا .

ومع ذلك يضربون أي قرد تسول له نفسه صعود السلم دون أن يعرفوا السبب ولو كان بإمكاننا سؤال القرد الذي يصعد السلم ؟

سيكون جوابه لا أدري هذا ما ألفيتهم عليه .

إذن هكذا تتم صناعة الغباء .

ما إن انتهيت من سرد القصة حتى نامت قدر ...

أخذت أتأملها ...تذكرت وأنا أنظر إليها أنها الحلم الذي رأيته وجاءني في إحدى الليالي على هيئتها تماما ..

أخبرتني حينها السيدة عائشة أن الرؤية تبشر بالخير وأوصتني أن لا أقصها على غيرها فيكيدوا لي كيدا كبيرا ...

– حتى الأحلام عندنا لا تسلم من الكيد والاغتيال .

كما أنها أوصتني أن أتوضأ كثيرا و أتمسك بصلاتي و أن لا أدخل من باب واحد ..الأبواب المتفرقة أسلم كي لن ا تتأذى قدر .

قصة قدر تشبه كثيرا قصة "الكوهينور" وقصة "الجوهرة الحمراء"

الجوهرة المسروقة من محمد بن إسماعيل ملك غرناطة والكوهينور البيضاء (كوهي نور) المسروقة من مسلمي الهند .

الياقوتة الحمراء في صدر التاج الملكي البريطاني ؛ هي إحدى جواهر الأمير محمد السادس بن الأحمر سلطان غرناطة ؛ وقد كان محمد بن الأحمر في ضيافة بيدرو ملك إشبيلية فقتله بيدرو واستولى على مجموعة جواهر كانت معه وقد تمرد أحد إخوة بيدرو عليه فاستعان بالأمير إدوارد أوف وودستوك الإنجليزي ؛ فاشترط عليه شروطا منها هذه الياقوتة فقبل ؛ وبعد معركة ناجيرا في 3أبريل 1367م ؛ أصبحت هذه الياقوتة النفيسة ضمن ممتلكات إدوارد وتوارث الياقوتة ملوك بريطانيا و استقرت في التاج الذي صنع لتتويج الملكة فكتوريا ؛ وورثته إليزابيث وتظهر به كثيرا .

والبيضاء "كوهينور" بالفارسي كوه نور ومعناه جبل النور .

هي ألماسة 105 قيراط (21.6غرام) كانت الأكبر في العالم ؛ استحوذت عليها بريطانيا وأصبحت جزءا من جواهر التاج البريطاني ؛ عندما أهديت للملكة فكتوريا عندما توجت امبراطورة على الهند عام 1877م

يقال أن هذه الجوهرة منذ 5000عام يعتقد أنها تحمل لعنة تصيب أي رجل يرتديها ؛ وتتسبب بمقتله أو مرضه أو خسارته لملكه .

سلمها صبي من أمراء الهند يدعى "دوليب سينغ" إلى شركة الهند الشرقية عام 1849م.

إلى اليوم تموت الهند قهرا وحزنا لأجل "الكوهينور" وسخرت كل ما تملكه حتى تسترجع جوهرتها المسروقة لأن ألمها يتجدد ويستيقظ كلما رأتها بتاج الملكة إليزابيث بالمناسبات .

طلع الصباح وسكت الصمت عن الكلام المباح .

كان الصباح قد جاء باكرا ولم أكن قد نمت أبدا ؛

التقيت بالسيدة عائشة لفترة من الزمن ...

غادرت إلى عملي ...نسيت أن أخبرها أنني قبل هذه الليلة رأيت في منامي عمر بن الخطاب ...

أوصاني ان أعتني بقدر ...كما أخبرني أنه نادم جدا عندما دفن ابنته بالتراب ..أوصاني بها ولا زال يوصيني حتى استيقظت ..

ما إن وصلت لمكتبي حتى لمحت السيد مختار إنه يبدو أفضل حالا مما تركته آخر مرة ؛ أخبرني أنه قد انفصل عن زوجته

أخيرا تشجع وطلقها ؛ إنه أبغض الحلال عند الله لكنه الحل الأفضل لعلاقة كهذه

...

قال أن المدرسة تبلغني السلام ..

قال أنه يحمل بعض الرسائل ...

في بادئ الأمر رفضت تسلمها

أخاف سياسة الاستيراد والتصدير ..

لم يشأ أن يخبرني بالأسماء ..

لكنه لمح إلى أنها رسائل اعتذار ..

بمجرد أن قال اعتذار ابتسمت ...ارتحت كثيرا

لا أريد أن أعرف بشأن الأسماء .

مختار لو سمحت تفضل معي إلى الداخل ...

أخرج ورقة وقلما ودون ما سأقوله ...

لا تشعر بالإحراج ..

لا أفضل شعور الغرباء ...

ولا أعتبرك غريبا ...لا يمكنني أن أرد لك الجميل سوى بإبعادك عن موطن الغرباء.

اكتب من فضلك يا مختار لإحداهن ..

أَعْلِمْها ان اعتذارها الآن يشبه قبلة اعتذار على جبين ميت

لا تسألني كيف ستعرف نفسها لأنها هي الأخرى تكتب ولا يفهم الكاتب سوى كاتب مثله أو قارئ يحلم أن يكتب مثله .

سجل ...

ولا تتردد أن تسجل ...

سجل ....

يقول ميخائيل نعيمة :

كم من ناس صرفوا العمر ...

في إتقان فن الكتابة ...

ليذيعوا جهلهم لا غير ....

أخبر تلك التي ترتدي اللباس الباريسي ...

وتفضل لكنة جاكلين ....

وتزور فرنسا كل عام ...

وتجعل باريس قبلتها ...

تقرأ الروايات لأجل عيون إيفل ...وليون

لا تذكر مارسليا أبدا ....

أخبر تلك التي تجعل مسافات المليار ميل بينها وبين طلبتها

فقط لأنهم لم يزوروا فرنسا ولا يعرفون شوارعها .

أخبرهم أنها متخلفة عندما كانت تضحك على الذين يتقنون العربية

أخبرها أنها لا تصلح أن تكون عربية ..

وأنها غير صالحة لتكون جزائرية ...

اخبرها فقط أن الجزائر تتنجس بأمثالها وأن المدارس تستعيذ من أشكالها .

ذكرها بالتاريخ ....اسألها عن 132عاما من رائحة فرنسا .

أخبرها التالي :

كنا طلبة لا حول لنا ولا قوة ...

بين أيدي تحمل رائحة فرنسا ...

أخبرها الآتي :

هواري بومدين حكم الجزائر 13سنة وقال : لن أزور فرنسا الاستعمارية ما لم تعتذر على 132سنة .

نصحه الأطباء بأن يعالج في فرنسا بعد فشل علاجه بالاتحاد السوفياتي ؛ أيام مرضه الأخير فقال قولته الشهيرة :"إدفنوني حيا ولن أعالج بفرنسا ".

أوصى زوجته السيدة أنيسة بومدين أن لا تطأ أرض فرنسا من بعده إن لم تعتذر عن إجرامها وهي إلى اليوم على عهده "

إنها المبادئ سيدتي ...

أخبرها أنني سأرسل لها الكلب الذي كان يربيه بومدين كي يعلمها الوطنية التي نستها ...

لأن كلب بومدين يرفض معلبات فرنسا ويفضل الموت جوعا .

أخبرها أنها كانت مخطئة بحقنا كثيرا ...

أخبرها أنها كانت تخلط بين تعايش الأوطان وتعايش الأديان .

أنقل لها خطاب أحمد مطر :

رأيت جرذا

يخطب اليوم عن النظافة ..

وينذر الأوساخ بالعقاب ...

وحوله يصفق الذباب ...

مختار من فضلك أخرج ورقة أخرى ...

و اكتب مرة أخرى لأجلي ...

لا تخف ..

سيفهمون ....يحبون فرنسا ولكن يحملون شهادة تثبت أنهم يفهمون باللغة العربية

...

التالي رجل وليس سيدة ...

كلهم مذنبون في نظري يا مختار ..لن أستثني أحد ...

أخبره هو الآخر أن كل من هناك مرضى تفتك بهم الشيزوفوبيا

سيدي مختار ...

اكتب الآن ....

سأتبع خطى نزار القباني كي أخط له هو الآخر خطاب الوداع .

يا سيدي العزيز /

هذا خطاب امرأة حسناء /

هي أنا ؟ دعنا من الاستغباء /

بكاء /عويل/صراخ /ودماء

أسخف ما نصدقه يا سيدي الهراء /

أخاف أن أقول ما لدي من أشياء /

أخاف لو فعلت أن تنكشف الأسماء/

شرقكم يا سيدي العزيز

يصادر النوايا البيضاء/

يصادر الأحلام والسعادة من خزائن النساء/

يستعمل السكين والساطور/

كي يرعب النساء/

هو يذبح الربيع والأشواق/

والأيادي السمراء/

شرقكم يا سيدي العزيز /

يصنع المجد الرفيع من جثث النساء/

لا تنتقدني سيدي /

إن كان صوتي سيئا /

فإني أتكلم والسياف خلف بابي/

وخارج الحجرة صوت الموت والعذاب/

يا سيدي /

الرجل الوحشي خلف شباكي /

يقطع أوصالي لو رأى الشفاف من ثيابي/

يحاصر المرأة بالخراب /

يبايع الرجال أنبياء/

ويطمس النساء في التراب /

لا تنزعج يا سيدي العزيز /

من سطوري لا تنزعج /

إذا أنا هربت من أقبية الجواري في القصور /

إذا أنا تمردت على موتي ؛ على قدري ؛ على المسلخ الكبير/

فالرجل الشرقي لا يهتم بالشعر ولا الشعور /

الرجل الشرقي يدمن النوم على القدور /

تجمعه قرابة بسلالة النسور /

خرافة حرية النساء في بلادنا /

فليس من حرية أخرى سوى حرية الرجال /

أنا على يقين انك لن تعاقبني /ألم أقل أنني امرأة حسناء /

في أول خطابي /

آن لك الأوان كي تغلق الكتابة ...

وتحمل هذه الرسائل بكل شفافية وشرف .

لكن من فضلك مختار لا تحمل لي رسائل من تلك الضفة مجددا

قدم لي مختار الكثير ...

كان سندا عظيما لي أيام الدراسة بالجامعة ...

كان يحب أن أدعوه أبي كثيرا ...

كان يشق علي هذا الامر كثيرا ...لأن أبي لا يمكن أن يشبهه رجل

و لا يمكنني أن أشاطر هذه الكلمة أحد مهما بذل لي .

خرج مختار ...وعدني أن يأتي مرة أخرى ..قبل أن يذهب

سألني سؤالا كنت قد عجزت عنه يوما ولكن سأجيبه اليوم ...

قبل أن تغادر سأجيبك ...

هناك شخص صالح من تلك المدرسة ...

شخص لا يشبه أحد ...

الأول تعرفه ...

والثاني سأصفه لك ...

لكن عندما نلتقي مرة أخرى بمكان اكثر هدوءا من هذا ..

تنهد مختار ...

يعني ...سأنتظر كالعادة ...أموت شوقا كي تتحدثي ...

تمر الأيام بروتينها المعتاد ...

مرت أيام وأنا أريد أن أتصل بمختار ...

أشعر برغبة شديدة في التحدث معه ....

خرجت دون أن أعلم أحد .....

لم أكن لأخطط لموعد ....لم أتصل به لم أتمكن من ذلك ؛ تعذر الاتصال ...

وأنا أجوب الشوارع صمتا ؛التقيت مختار مجدداً؛أرتاح له كثيرا بمجرد رؤيته أطمئن وأكره أن أرى الحزن على وجهه أيضا...

كنت أحدثه عن كل ما مررت وكما أمر به ؛ كانت عيناه تستجوبني ...أعلم أنه لن يهدأ حتى يطمئن أنه لا أحد قام بأذيتي ولا شيء أسكب دموعي .
حدثني عن آخر رسالة بعثت بها إلى حيث نبضت أحلامي ...إلى حيث استفقت من الغيبوبة وأين بلغت سن الرشد....أين استرجعت نفسي وأنقذت حياتي للمرة الأخيرة.

سألني بمناسبة الرسائل كيف أنقذت هذه الحياة التي تخصني ...ببساطة يا سيدي مختار إنه القدر ...
وبعد صمت طويل أدرك أن هذه الحياة لم يكن أبوها امرئ سوء ولم تكن أمها بغيا ؛أوجدها الله كما أوجد عيسى عليه السلام ...لذا توجب علي إنقاذها.

كأنه كان يرتاح لصمتي ..أحلامــه يوسفية جدا تتبعها نزقية مختلفة...جل خطواته مدروسة يمشي كمن يخاف الوقوع في بئر.

سألني مجددا عن الكتب وإن كنت لازلت أحب الهدوء بينها ؛ أخبرته أي نعم ؛لكن الوضع اختلف قليلا ؛تغيرت بعض المخططات وتغيرت الطريق قليلا ؛لكني لازلت أفكر بالهروب ؛نحو القراءة والكتب مجددا .

مختار ؟

-نعم ...

اشتقت لها ....إنها سبب ضعفي الآن ...إن طيفها لا ينفك يبرحني ...أصبح الزمن ثقيلا جدا .

تعلم أن قلبي لا يفتح للكل ....تعلم أن مسألة الانتقاء عندي شائكة.

أتذكر اليوم الذي كنت أبحث فيه عن رواية شرفة العار لإبراهيم نصر الله ؛لقد كنت أبحث عن سبب يجعلني لا أصدق أنني وجدتها ...عن آخر فصل تركته بالرواية ربما كانت بطلة فيه وتوهمت وجودها فعلا ...

لقد خفت يا مختار ....نعم التقيت بأسماء بن عطاء الله ...لقبها وحده يصيبك بعدم التصديق .....والتمسك بالشك والريبة ....

لقد أنجبت بسكرة أسماء مرة واحدة وستكون عقيما بعدها .

كل الحروب خسرتها عدا حرب أسماء ....الانتصار فيها بنكهة السماء ورائحة الأرض الطيبة ..

كانوا سما يا مختار سما وفيا يقتل كالخيانة في صمت واعتذار .

والبعض يجري فيك ماء مسالما يزيد في النبض كلما أسرع المسير ...حتى يبتلع آخر قطرة من دمك ويصيبك بالجفاف والهلاك.

"البعض حين يصعدون لا ينزلون وحتى إذا ترجلوا نتشبث فيهم بأظفار ذاكرتنا و أسنانها ، فمن فرط الحب يصبح البعض نحن" –أدهم الشرقاوي–

لقد زادت صحرائي وسامة واتساعا لقد أنبتت بها غرسا كثيرا وأمطرتها خيرا وفيرا.

لقد نضبت المياه الجوفية حين حلت بي ....لقد تشربتها فاستحالت سندسا واستبرق وصار الشجر فيها قوارير.

استحالت صحرائي دوحا نضرا يسر الناظرين.

مختار صدق أدهم الشرقاوي حين كتب :

"الحرب كر وفر ؛يوم لك ويوم عليك ؛وهذا شيء يعرفه الجميع ؛ومن البداهة أن لا يكون محط نقاش نتوقف عندها ولكن الجدير بالتوقف عنده ؛أن في الحرب معارك جانبية ولكل إنسان في هذه الحرب معركة يخوضها وحده. هذه المعركة هي الحرب كلها بالنسبة إليه –صدقوا كثيرا لما قالوا :"من يربح المعركة ليس بالضرورة أن يربح الحرب –

لما أتت كنت وجلة كنت كالنملة التي ترجت سليمان في قلبها حتى لا يكسرها ولا يحطمها وقفيرها وكانت على وجل من دهس الأقدام ....ضحكت من قولي ودخلت أرضي بطيبها فطوعت كل ما وجدته يعبد إله غير الله ...ولم تكسر بي شيئا.

أوجست في قلبي خيفة مختار ....كنت كالذي يرسم حوله دائرة و يستعيذ بالله ويقرأ آية الكرسي وينام بها ليلا في ظهر الصحراء ولا يخرج منها إلا صباحا خشية أن تتخطفه الجن.

أسماء يا مختار ...

ساعدتني كي أصنف الناس وهم في رسالة الغفران كالتالي :

-باب المغضوب عليهم والضالين

-باب أصحاب الأعراف.

-باب الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

كل الذين التقيتهم ...لا يسعهم إلا أول الأبواب مكانا لهم....عداها هي .... حلوة السمار كرمال بلدتها ....عذبة الروح ...هادئة العيون ...جميلة الخلق باسمة الثغر ...

تكاد تقسم أن الله لم يخلق إناثا سواها ....إن صمتها يكلم الرضيع في المهد

...إنها تجيد ضم الأغصان لبعضها حتى تشعل الدفء بقلبي شتاء ...

إن الكلمات إذا أرادت أن تكتبها وجب عليها أن تخلع نعليها .

لقد جاءت بعد أن كنت أحد الحاضرين بحجة الوداع ؛

أين بلغني أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيرحل؛

بكيت بشدة يا مختار ...نعم سيذهب أعز الخلق ...

تمنيت لو هرولت إليه صلى الله عليه وسلم كي أسأله أن يدعو لي بمن يعينني على

سنته بعده فأرسل الله يا سيدي ...."أسماء" .

فماذا سأصف لك أكثر من هذا يا سيدي المحترم؟

هل تعلم يا مختار

أحيانا كي تثبت براءة قلب أحدهم أو حتى براءة قلبك تحتاج لمعجزة أو شيئا يشبه دهرا طويلا ..

عندها لا تجوز حتى البسملة عند سرد قصة توبتك أو براءتك ؛

ينظر إلي مختار باستغراب كبير ؛ أعلم أنه يريد تفسيرا لقولي هذا ..

اسمع جيدا مختار ...تعرف جيدا قصة ريا وسكينة ...قاطعتني نظراته باستغراب كبير ...

كأنه يخاف القصة كثيرا ...

أنصت لي جيدا ....وستستغرب أنت أيضا مما سأقوله لك .....

أثبتت الإذاعة البريطانية (بي بي سي) براءة ريا وسكينة ؛
مؤكدة أن كل الجثث التي وجدوها في منزلهما كانت لجنود الاحتلال الإنجليزي في
الفترة
التي احتلت فيها مصر ؛ وأعلنت أن ريا وسكينة وشريكيهما عبد العال وحسب
الله مناضلين
ضد الاحتلال الإنجليزي ؛ فكانوا يقومون باستدراج الجنود الإنجليز ويقتلونهم
ولم يقتلوا النساء كما أشاعت السينما المصرية والمسلسلات والمسرحيات .

و أكد المخرج السينمائي أحمد عاشور أن ريا وسكينة كانتا من المناضلات
المصريات
ضد الاحتلال الانجليزي ؛ و أنه بعد القبض عليهما تم اتهامهما بهذه التهم ؛
وتعديل القانون الذي كان ينص على حظر إعدام النساء وبذلك يكون الشعب
المصري
قد تعرض لأكبر خدعة طوال قرن .

تخبرني عائشة أنه يجدر بنا التحقق من هوية المطر الذي ينزل علينا طيلة هذه السنوات ..

هذا المطر الذي لم يعد ينبت نباتا ولا حلما ولا أما ....ولا يروي حقول أجدادنا وآباءنا العطشى؛ ولا يجلب الخير .

مطر اليوم مطر مشكوك في أمره و أمرنا ؛ تقول لي أيضا أن الله أمطر قوما قبلنا مثل هكذا مطر ؛

تردد..

"فأمطرنا عليهم مطرا وساء مطر المنذرين "

تخبرني ...من جديد

التمسك بالله سر هدوء الأرض وصبرها على أفعال البشر ؛

وسر تقبل الموت والاستسلام له .

فكرة حب الله وحمده والتعلق به والتوكل عليه ؛

ترفع عنك الضيق والبكاء ..

تذكرت

نعم البكاء ...والبكاء دون دافع تحديدا...

أعانيه بشدة يا عائشة ...

وخاصة إذا اشتقت له فجأة ...

البكاء المفاجئ ليس كما يفسره العلماء والأطباء النفسانيون

انه الحنين إلى أحدهم و عبارة عن صدمة قديمة قد استدعتها ذاكرتك فجأة ...

إنما البكاء الذي يأتي دون سابق إنذار ؛

ثقل كبير وإرهاق يسبب الجنون ويمزق نياط القلب .

عبارة عن اجتياح لموجة كبيرة من الفراغ الذي تعانيه الروح تجاه خالقها ؛

تتحدث عائشة عن جوع غريب ومختلف جدا تسميه جوع الأرواح أو جوع النفس...

أخبرتني أنه أشد فتكا ..من الأمراض وأخطر المجاعات.

إنه عملية أكسدة تلحق بالنفس البشرية السوية ...حيث يغير من اللون والشكل وحتى المذاق ..

تبدو الحياة غصة ...والقدر شوكة فيها .

إن هذا النوع من البكاء والفراغ لا يستهدفنا بل نحن من نستهدفه ..

نحن الذين نهيئ له الأماكن والثياب ونجعل له أعيادا وطقوس.

ينتظر أن تسقط بنا زاوية فيستحوذ على المدينة بأكملها .

أحسست طيلة بقائي مع السيدة عائشة أنها تستند إلى هذه الآية أكثر مما تستند إلى البشر .

"والَذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبِهُمْ بِذِكْرِ الَلهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَهِ تَطْمَئِنُ القُلُوبِ"

تقول عائشة أن الإنسان يحتاج إلى شخص مثل بلال كي يرتاح بالصلاة لسماع صوته...

نحتاج لهمة مثل همة أبي بكر الصديق حتى نعبد الله بصدق

نحتاج أن نحب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلما كانوا يفعلون

الحـــب عند عائشة

هو بلال حين يعتزل الأذان بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

فلم يؤذن لأحد بعده ...

حتى طلب منه عمر عند فتح بيت المقدس

فلما قال : أشهد أن محمد رسول الله

بكى وضج الناس بالبكاء ؛ذكرا منهم رسول الله

ولم يرى يوما كان أكثر بكاء منه.

تكمل عائشة حديثها ...

تقول أيضا أن الأخ إذا ما كان صالحا ؛

فإنه جنة ثانية فوق الأرض ...

يشبه كثيرا الجنة التي طرد منها آدم ...

تستطرد وتقول :

الأخ على ثلاث...

إخوة تصارعوا لأجل الفوز بامرأة ذات جمال..حتى ينكحوها معارض أحدهم بذلك قضاء الله وقدره...

حيث سولت لأحدهما نفسه قتل الآخر ...

إخوة أصابتهم الغيرة بالعمى والجهل ..من تفضيل أبيهم لأخيهم عليهم ؛فكادوا له وورطوا الذئب بدم كذب ...فابيضت عينا النبي يعقوب من الحزن ...

أخ سخره الله حتى يساند أخاه في قهر فرعون وهدايته لقوله عليه السلام

"وابعث لي هارون أخي أشدد به أزري "

فشد الله عضده بأخيه ....

تركت بعدها عائشة لي هذا القول :

"إذا أوتينا حظ موسى أخا فمن العار أن نخسر ونطرد من الجنة مرتين "

تحكي عائشة لقدر كل يوم نفس الحكاية ...لكن في كل صباح تنهض قدر وقد اختلفت عندها طريقة الحكاية والعبرة من الحكاية ...

تتدافع و أنت على باب الجنة ...

تتمنى حينها أن تسمع اسمك ورب الجلالة ينادي على رؤوس الخلائق ...

يستمع الله لنبضك الخائف وأنفاسك المرتجفة ...

وعيناك وهما تبحثان ليس عن باب الجنة والناس تتزاحم ؛

إنما تبحثان عن أمك وأبيك ؛

حتى يخلو لك وجه الجنة ؛

لازلت تبحث عنهما بطمأنينة تعلم أن الله لن يخذل وعدك الذي قطعته بينك وبينه في الدنيا ...

أنت سعيد جدا لأنك أوتيت كتابك بيمينك فهنيئا لك عقبى الدار لكن لازلت تبحث عنهما حتى تكتمل جنتك ...

ثم تشاء الرحمة الإلهية أن تصنع لك ما تمناه قلبك ؛

إنها تضع والديك أمامك وكتبهما بيمينهما ؛

ادخل من أي الأبواب شئت ؛

ادخلها بسلام آمن أنت ووالديك ؛

ولا خوف عليكم ولا هم يحزنون ؛

تتسع طريق الجنة شيئا فشيئا ؛

تخيل حجم الفرح والأمان الذي سيعرفه قلبك الذي كان حزينا بتلك المسماة بالدنيا .....

فقط تخيل حجم الارتياح من فكرة الموت التي قهرتك وسببت لك الوساوس بالدنيا التي كنت فيها ؛

كنت تخاف ألا تستيقظ ؛

أن تموت والله ليس براض عنك ؛

كنت تخاف أيضا ألا يتبقى لك شيء من والديك لتجر به بقية الحياة

الآن وأنت إلى جانب والديك

بوجوه نضرة مطمئنة إلى ربها ناظرة ؛

وإذ بك تسمع صوتا خافتا وراءك ؛

يدعوك باسمك ..

ويطلب منك أن تلتفت ؛

ما إن تلتفت حتى يصادفك وجهه وملامحه صلى الله عليه وسلم

إنه يضمك بين ذراعيه ؛

أنت رائحة أمته

أنت فرد من الإسلام والدعوة والجهاد؛

تصلي عليه وهو أمامك من فرط ما صليت عليه في الدنيا

بدأت تخبره أنك مشتاق إليه تريد أن تضع يدك على يده

لكن الحياء الشديد منه يمنعك

تخبره بلهفة أنك كنت تحفظ أحاديثه وتحفظ شيئا قليلا من السور مذ كنت صغيرا تحفظ بزاوية بالمسجد

تريد أن تخبره أنك صدقته وآمنت به دون أن تراه ؛

تسأله عن حاله وأنت وسط ذهول شديد ؛

يربت على كتفك وينهاك عن البكاء لأنك بالجنة ؛

تخبره أنها دموع فرح سعادة واشتياق له ...

تسأله عن فاطمة وعائشة وخديجة رضي الله عنهن

تسأله عن صديقه أبو بكر الصديق ؛

تخبره أنك تعلقت به من مواقفه التي قرأتها بالدنيا في السيرة النبوية ؛

ينادي الذين ثبتوا على الحق والذين دافعوا عنه ؛

وكتبوا سيرته بكثير من الحب والصلاة عليه

يجمعكم جمعا غفيرا

يستأذن الله عز وجل ...يسأله مرضاته

ثم يأذن لكم بالدخول إلى جنة الخلد زمرا زمرا

رضيتم عنه ورضي عنكم

صدق وعد الرحمن وما أصدق من الرحمن قيلا .

"تعود الذكريات المتداعية وتدخل فجأة ...
يرجع مختار إلى الواجهة من جديد ويجبرني أن أنقل ما أرسله
ماض مجهول وخيال لا يظل شاردا "

وأنا على بعد أمتار منك الآن..

أستشعرك بالقرب مني ؛

أتذكر دلعك ...

وطفولتك التي لا حدود لعذوبتها ؛

خلقك الله وأمدك أمدا في خلقك

استغرق تركيب ملاك مثلك أكثر من تركيب السموات والأرض ؛

سحر العيون عندك يخرق الأرض ذهولا ويبلغ الجبال رقة ..

ساحرة ...

عندما تحدقين بالأشياء ...

وتذوبين براءة فيها ....صوتك يصل صداه إلى أكثر الأماكن شتاء بقلبي ...أين

يملؤني الصقيع والثلج ..

فيتردد صخبك داخلي كرصاصة أول نوفمبر ...

كرائحة الشهيد ....بين قدميك أصل إليك

ما إن ألتقط صوتك حتى أحسبه آذان؛

فيستعد قلبي للصلاة؛

وهو متوضئ بك؛

جميلة إذا تحدثت على الهاتف ؛أخسف كلما خفضتها لينقطع صوتك عني .

تنمو بيدي الأزهار وتتدفق السيول التي يتصارع موج عطرها بين خطوط يدك المغرقة في يدي ؛

تتسمر عينيك بي إذا ما سألتك عن شيء ؛

أصاب بالعجز عن النطق بالشهادتين؛

تقتل ألف حرف على شفتيك ؛

أتخيلك وأنت تنطقين كلمة "أحبك"

أستحيل غلاما قريشيا لا يفهم إلا بلغة السيوف والحبال ؛

إذا ما لامس يومك صوت غيري ؛

أغار جدا إن غردت لك العصافير صباحا على نافذتك بعيدا عني

ألعن كل يوم السقف الذي عجز أن يحتوينا ؛

ويجمع أحلامنا على وسادة واحدة...

لازالت وسادتي حتى الآن بيضاء ؛

تنتظر أن تتلون بك ؛

وأن تتعطر بأنفاسك ؛

سأحرص غرفة نومك ؛حتى الأحلام إذا راودت نفسها عنك منعتها بقوة السيف؛

تأكدي أنني سأمنح للعصافير حق الهجرة حتى تنسى نافذة بيتك ؛

مذهلة أنت بغطاء الرأس ذاك أو بدونه؛

جمالك لا يفرق معه شيء ؛

أية إضافات إليه تعزز النكهة وتلطف الذوق؛

أنت إزاري الذي ألتحفه ليلا وقد توقدت به أنجما ؛

وفتحت به مجرات نحو متاهة الثقب الأسود ؛

كي تضيع أحلامي مجددا حتى أجد صعوبة في الاستيقاظ ؛

كل جمالك يصب في عينيك ؛

أقسم أن أمك حبلت بك قرب النجوم ؛

وارتشفت من تراب القمر ؛

فتسرب إليك شيء من درب التبانة ؛

ذلك البريق الذي فوق خديك ؛

خلته أول مرة إحدى خدع المساحيق ؛

لكن في ذلك اليوم الذي مسحت دمعتك فيه ؛

كنت أمسح خدك بقلبي ؛

بخوفي الهادئ تجاهك ؛

كنت أخاله سيعلق بيدي ويلتصق بي ؛

لكنه تشبث بخدك وما زادته الدموع إلا التماعا؛

وددت لو كنت أستطيع تقبيلك ؛

أن أحاول تجربة طعم البريق الذي فوق خديك ...

ربما لن يتشبث بخدك بعد الآن؛

كلما انسدل شعرك البني فوق عيونك ؛

ارتفعت أهدابك وزادت استكبارا؛

حتى أصبح الناظر إليك قصيدة متكسبة ؛

ترجو من الريح كي يبعد أنفاسه عن شعرك ؛

حتى يخلو السبيل لعينيك ؛

عيونك فخي ؛

وفخي قلبك ؛

جمالك بإمكانه اغتيال كوكب بأسره ؛

وأنا فلاح صغير بمعولي أحصد أرض قريتي ؛

وأحلم باغتيال خدك يوما ما .

قدر حساسة بقدري تماما ؛

سوى أنه لا عيب في أن تكون عاطفية ؛

وكثيرا ما تسمح لأحاسيسها بالتجول حتى في الأماكن المحظورة؛

تتحدث لي ولعائشة عن "مريم" التي يسخر منها الجميع ...

لأنها تعاني نوعا ما اضطرابا عقليا طفيفا؛

كانت قد تعرضت أمها لحادث عندما حملت بها ؛

تسألني قدر ...

هل هناك عيب في الجنون ؟

هل المجانين مثلنا ويشبهوننا؟

للجنون فلسفة يا قدر ...

إنه الجانب الخفي في كل نفس بشرية؛

وربما هو نعمة يهبها الله لمن يشاء ؛

"مريم" تبدو وهي تلعب معكم طاهرة جدا ونقية ؛

إلى الحد الذي تبدو فيه نواياها مكشوفة لكم ؛

تحب الجميع ولا تفرق بينكم ؛

أجمل ما في الجنون هو الطهر يا قدر ؛

الحرية ....العفوية التي تربطك بالله ومخلوقاته ؛

ستعيش "مريم" حرة ...من قيود المجتمع ؛

سينظر الله إليها بعين الحكمة لسر أودعه بها ؛

وسينظر الناس لها بعين الرحمة أو الشفقة ؛

يأتي المجانين لهذا العالم حتى يحققوا التوازن ويحفظوا النسل؛

لقد أتوا لغاية في نفس الحياة والقدر؛

بوجودهم نتطهر من خطايانا ؛

إن للمجانين حظ من القرآن يا صغيرتي ؛

ريطة بنت عمرو بن كعب التي كانت تجيد غزل الصوف ؛

بطريقة تذهل منها العرب ؛

كانت كلما أحكمت غزلها نفضته فيذهب جهدها هباء منثورا ؛

ورغم ذلك ذكرها القرآن كعبرة ؛

ستحظى مريم بشرف وحظ أم عيسى "مريم العذراء "؛

سيقذفها الناس ويتهمونها ويطالون عرضها ؛

لكنها بالنهاية مريم ؛

أتعلمين يا قدر ؟

كل عظيم به مسحة من الجنون ؛

وكل مجنون على رأسه ريش من الحكمة ؛

موتهم كموت العظماء ...

رقيهم ينمو في صمت وموتهم مدوي ؛

ما أريدك أن تعرفيه ؛

هو أننا من سنحمل ذنب هؤلاء إلى يوم الدين ؛

لأننا أبعدناهم عن زمرتنا ...استثنيناهم من الآدمية ؛

وضعنا بهم وحشية ودموية قاتلة لا تنتهي ؛

نحن من نتسبب بالأذى لأنفسنا المريضة داخلهم ؛

ستموت التوبة إذا ما مات هؤلاء يا قدر ؛

سيعاقبنا الله كثيرا وسنحشر عما قريب ؛

وعندها لن نجد ما نقول ستشهد قلوبنا أننا تمنينا موتهم ؛

اعتدينا على حكمة الإله في خلقهم ؛

ستجرمنا جوارحنا وتنطق يوما لتدافع عنهم يا قدر .

" عندما تقرر فجأة أن تجلس بمفردك ؛

وتهرب بعيدا بحجة أن الصلاة والتأمل ... ؛

تحتاجان إلى كثير من الهدوء والخشوع ؛

يجب أن تكون قويا كفاية ؛ كي تخشع ...

...بعدها سترى الكثير من المياه حولك ...

والبرد يلعب بأفكارك ...

لكنه لا يعض كعادته ؛ لأنك لم تعد تشعر به ...

سترى الكثير من الموانئ المهجورة ...

وأثاث البحارة يتكئ بكل زاوية ...

لا تسمع سوى زوابع البحر ....وزحف الأمواج يكاد يصيبك بالصمم.....

ستنتبه أنك تجلس فوق العديد من الشباك ...

رجلاك عالقتان ...

رغم أنك حافي القدمين ...

ثوبك شراع سفينة قديم ...أنهكته الأماكن البعيدة والغريبة ...

وأنت تأمل بعيدا إلى حيث يغتال الليل ضوء الشمس ..

لا تبصر بيديك شيئا سوى بقايا حطام ....

وفي فمك بقايا إنسان ....

"وَفِيْ السَمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونْ "

عند سدرة المنتهى يا قدر..

لا يمكن للبصر أن يزيغ أو يطغى ..

لا يجب أن تخلفي وعدا ..

هناك أحلام وحتى أقدار تبنى على الوعود يا صغيرتي ...

إياكِ والظن ....

إن الظن لا يغني من الحق شيئا ...

لا تزكي نفسك ؛الله اعلم بمن اتقى واهتدى...

إياكِ والظن الذي يحيكه صدرك ...

احذري أن يطلع الله على قلبك فيجده مريضا ...

تذكري ...

اجتهدي كي تقابلي الله بقلب سليم ...

لا تنسي حظ الوالدين من الذكر والدعاء ...

تذكري قدر ...

الله أرحم بنا من أمهاتنا ...

إنه أضحك و أبكى وهو رب الشعرى...

يسألنا بعد أن ننتهي من أشغال الدنيا التي تسرقنا من بين يديه

لا تنسي أن الدنيا تستولي على قلوبنا

ما لم نعلقها بالله

أخبريه بقولك "أحبك"

وإذا أحببته سيحبك وسيقربك لكل ما يحبه

حتى يستيقظ ذلك الفقد فينا ويفجر الحنين بأرواحنا ...

إن قررت يوما أن تشتاقي فابدئي بمحمد صلى الله عليه وسلم

تذكري ...

تربى يتيما مثلك ...

ليس له إخوة ...

نشأ طيب القلب ؛عبق الخلق ؛ أطفأت الأنوار ومصابيح الروم تقديرا وتعظيما له

.

فرح به القمر لدرجة أنه انشق يا قدر

صل عليه ما استطعت ...

تمني لقاءه يا جميلتي ...

اجعليه وعدا وقرضا عند الله ...

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ...

تذكري قدر ..

اذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون .

"إن المجتمع الفاسد إذا لم يجد للمصلحين تهمة

عيرهم بأجمل ما فيهم

ألم يقل قوم لوط "أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَرُونْ"

-أدهم الشرقاوي -

"سأحمل فأسي يا عائشة

وأذهب كي أحتطب ...

مللت سؤال القدر....

أعطاني أو منعني ...

ربما سأسعد بكومة الحطب."

–وناسي مروى–

دخلت أحلامي ورواياتي غيبوبة ...

بعدما أفقت منها ؛ كنت موصولة بكل شيء ..

بكل الأجهزة ومفصولة عنك تماما...

فصلت عني الأحاسيس ...

أوقفوها عندما أوقفوا النزيف

تشربتها كل قطع القطن والقماش المعقم

لم يتركوا لي شيئا أبحث به عنك من جديد

وأنا أبتعد عن قاعة العمليات

أحس بألم بقلبي ...

شيء ساخن يتدفق ,

أيقنت حينها أنهم لم يوقفوا النزيف ..

كانت قطرات الدم تبحث عنك وتسيل بغزارة

...وتبحث عنك النبضات بين وجوه الأطباء ...

وبين روائح الموت ...

حاربت اليأس والخوف وتفقدت حتى ثلاجات الموتى ...

وملابس الموتى...

أبحث بوجل عله يصادفني قميصك أو أحد سراويلك

أو أشلاء من رائحتك وقلبك ...

مازال الوقت مبكرا على الموت ...

ليس لأننا لازلنا شبابا بل لأننا لم نتذوق الحب بعد .

لم يكتب لنا أن نلتقي به ولم نتعرف إليه قط...

الحب مثل كل الأقدار والمكاسب لابد من الاكتواء به والتضحية في سبيله...

أصابتني نوبة جنون وهذيان حادة ؛

ونزلة برد تكاد تجعلني متجمدة عاطفيا ...

عندما ظهرت ورائي فجأة وابتسامة عريضة تستلقي على خدك الأيسر وأنت

تتأملني أبحث عنك وسط النزيف .

"إلى المتيمين بالوعود ...

الحظ غالبا ما يخون إذا تعلق الأمر بالوعد

تذكرت يوما قول أحدهم:

تداعيت لما لمحت ضحكتها ...وقد حملت رياحها رائحة البشرى

اتهمته لتوها بالمجون والزندقة والخروج عن سلطان الدين

حتى التفتت فوجدته يقرأ وبيده المصحف

واضعا يده على الآية

"فضحكت فبشرناها"

استحيت ؛استغفرت

أعدت ترتيب ظني ورحلت.

رسالة أخرى إلى مختار...

والمطر ينزل ...

والريح تعصف بأطراف ثوبي ...

والغرباء يسرقون النظرات ويحشرون أعينهم عندما يصعد ثوبي عاليا ممسكا بيد الرياح ...

تفآجأت بأحدهم يا مختار في منتصف الطريق ...

كعادته كان ذاهب لعمله ..

لم يكن نفس الوجه الذي تركته منذ عام تقريبا ...

لم يكن نفس الوجه الذي يتلذذ بالفراق والتعذيب والسادية

كان الحزن قد شق طريقا عريضا بوجه وخربه

فجأة تذكر اليوم الذي أطلق فيه سراحي ...

اليوم الذي اعتقد أنه لن يندم لأجله ...

كان يؤمن أن النساء نسخ تباع على قارعة الطريق

كان يؤمن بفن المقايضة والبضاعة جدا ...

لديه فلسفة مفارقة عندما يتعلق الأمر بالبيع والشراء ...

تذكرته عندما صرخ بوجهي ...

إنه من النوع الذي لا يقوى على الصراخ إلا بوجه النساء ...

تذكرت يا مختار ما قاله صديقنا "أدهم الشرقاوي"

"الحياة أقصر من أن يكتب فيها نص طويل" ....

لقد كتبنا وكتبنا دون أن نعيش ودون أن نبلغ النص الطويل ..

في الحب يتحدث الرجل عن انتصاراته

وتتحدث المرأة عن هزائمها

هكذا غردوا وليس أنا من غردت

فالرجل أجبن من أن يقول دمرتني امرأة

والمرأة أدهى من أن تقول دمرت رجلا

فشلت أن أرفعه إلى مستواي ولم ينجح في إنزالي إلى مستواه...

تذكرت مرة أخرى ما قاله أدهم يا مختار

"من المهم أن تفكر بنفسك أحيانا

فأديسون الذي أضاء كوكب الأرض

عجز أن يضيء قبره"

لأول مرة سيدي مختار أرى الضعف بالرجال /أشباه الرجال

لأول مرة أرى انهزام أحدهم في صدفة لقاء .

"أتعرف شيئا يا مختار ماذا غرد أحدهم يوما ...

عندما يأتي الفيضان ؛ السمك يأكل النمل ؛ لكن عندما يجف الماء يأكل النمل

السمك ؛ الحياة تعطي الفرصة للجميع فقط انتظر دورك "...

–أقوال خلدها التاريخ –

وأنا أجوب الشوارع صمتا ؛التقيت مختار مجدداً؛أرتاح له كثيرا بمجرد رؤيته أطمئن وأكره أن أرى الحزن على وجهه أيضا...

كنت أحدثه عن كل ما مررت وكما أمر به ؛ كانت عيناه تستجوبني ...أعلم أنه لن يهدأ حتى يطمئن أنه لا أحد قام بأذيتي ولا شيء أسكب دموعي .
حدثني عن آخر رسالة بعثت بها إلى حيث نبضت أحلامي ...إلى حيث استفقت من الغيبوبة وأين بلغت سن الرشد....أين استرجعت نفسي وأنقذت حياتي للمرة الأخيرة.

سألني بمناسبة الرسائل كيف أنقذت هذه الحياة التي تخصني ...ببساطة يا سيدي مختار إنه القدر ...
وبعد صمت طويل أدرك أن هذه الحياة لم يكن أبوها امرئ سوء ولم تكن أمها بغيا ؛أوجدها الله كما أوجد عيسى عليه السلام ...لذا توجب علي إنقاذها.

كأنه كان يرتاح لصمتي ..أحلامــه يوسفية جدا تتبعها نزقية مختلفة ....جل خطواته مدروسة يمشي كمن يخاف الوقوع في بئر.

سألني مجددا عن الكتب وإن كنت لازلت أحب الهدوء بينها ؛ أخبرته أي نعم ؛لكن الوضع اختلف قليلا ؛تغيرت بعض المخططات وتغيرت الطريق قليلا ؛لكني لازلت أفكر بالهروب ؛نحو القراءة والكتب مجددا .

مختار ؟

-نعم ...

اشتقت لها ....إنها سبب ضعفي الآن ...إن طيفها لا ينفك يبرحني ...أصبح الزمن ثقيلا جدا .

تعلم أن قلبي لا يفتح للكل ....تعلم أن مسألة الانتقاء عندي شائكة.

أتذكر اليوم الذي كنت أبحث فيه عن رواية شرفة العار لإبراهيم نصر الله ؛لقد كنت أبحث عن سبب يجعلني لا أصدق أنني وجدتها ...عن آخر فصل تركته بالرواية ربما كانت بطلة فيه وتوهمت وجودها فعلا ...

لقد خفت يا مختار ....نعم التقيت بأسماء بن عطاء الله ...لقبها وحده يصيبك بعدم التصديق .....والتمسك بالشك والريبة ....

لقد أنجبت بسكرة أسماء مرة واحدة وستكون عقيما بعدها .

كل الحروب خسرتها عدا حرب أسماء ....الانتصار فيها بنكهة السماء ورائحة الأرض الطيبة ..

كانوا سما يا مختار سما وفيا يقتل كالخيانة في صمت واعتذار .

والبعض يجري فيك ماء مسالما يزيد في النبض كلما أسرع المسير ...حتى يبتلع آخر قطرة من دمك ويصيبك بالجفاف والهلاك.

"البعض حين يصعدون لا ينزلون وحتى إذا ترجلوا نتشبث فيهم بأظفار ذاكرتنا وأسنانها ، فمن فرط الحب يصبح البعض نحن"

–أدهم الشرقاوي–

لقد زادت صحرائي وسامة واتساعا لقد أنبتت بها غرسا كثيرا وأمطرتها خيرا وفيرا.

لقد نضبت المياه الجوفية حين حلت بي ....لقد تشربتها فاستحالت سندسا واستبرق وصار الشجر فيها قوارير.

استحالت صحرائي دوحا نضرا يسر الناظرين.

مختار صدق أدهم الشرقاوي حين كتب :

"الحرب كر وفر ؛يوم لك ويوم عليك ؛وهذا شيء يعرفه الجميع ؛ومن البداهة أن لا يكون محط نقاش نتوقف عندها ولكن الجدير بالتوقف عنده ؛أن في الحرب معارك جانبية ولكل إنسان في هذه الحرب معركة يخوضها وحده. هذه المعركة هي الحرب كلها بالنسبة إليه

—صدقوا كثيرا لما قالوا :"من يربح المعركة ليس بالضرورة أن يربح الحرب —

لما أتت كنت وجلة كنت كالنملة التي ترجت سليمان في قلبها حتى لا يكسرها ولا يحطمها وقفيرها وكانت على وجل من دهس الأقدام ....ضحكت من قولي ودخلت أرضي بطيبها فطوعت كل ما وجدته يعبد إله غير الله ...ولم تكسر بي شيئا.

أوجست في قلبي خيفة مختار ....كنت كالذي يرسم حوله دائرة و يستعيذ بالله ويقرأ آية الكرسي وينام بها ليلا في ظهر الصحراء ولا يخرج منها إلا صباحا خشية أن تتخطفه الجن.

أسماء يا مختار ...ساعدتني كي أصنف الناس وهم في رسالة الغفران كالتالي :

-باب المغضوب عليهم والضالين

-باب أصحاب الأعراف.

-باب الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

كل الذين إلتقيتهم ...لا يسعهم إلا أول الأبواب مكانا لهم....عداها هي .... حلوة السمار كرمال بلدتها ....عذبة الروح ...هادئة العيون ...جميلة الخلق باسمة الثغر ...

تكاد تقسم أن الله لم يخلق إناثا سواها ....

إن صمتها يكلم الرضيع في المهد ...

إنها تجيد ضم الأغصان لبعضها حتى تشعل الدفء بقلبي شتاء ...

إن الكلمات إذا أرادت أن تكتبها وجب عليها أن تخلع نعليها .

لقد جاءت بعد أن كنت أحد الحاضرين بحجة الوداع ؛ أين بلغني أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيرحل؛ بكيت بشدة يا مختار ...نعم سيذهب أعز الخلق ...تمنيت لو هرولت إليه صلى الله عليه وسلم كي أسأله أن يدعو لي بمن يعينني على سنته بعده فأرسل الله يا سيدي ...."أسماء" .

فماذا سأصف لك أكثر من هذا يا سيدي المحترم؟

أتعلم شيئا مختار ...

أردت أن أحدثك بعد مرور كم من يوم بقدر آخر ...مختلف تماما لم أشأ أن أتحدث عنه بشيء من الإيجابية خوفا من أن يغدرني حظي مرة أخرى ؛ إنه القدر مرة أخرى يجبرني أن أتحقق من طبيعة الأرض التي أمشي عليها مرة أخرى ...

أرأيت ...

كم نحن مثيرون للشفقة ...نحن الذين لا تعرف الأقدار السيئة سوى أبوابنا انتظرت بشدة يا مختار ؛ الذي ستلتقي فيه بهذا الحماس ؛ مرة أخرى لكني لست بارعة بالتذكر والإحساس إلا و أنت بجانبي .

الهدوء الذي تفرضه عيناك يساعدني كثيرا ....

أتذكر ذلك اليوم الذي نسيت أخبرك فيه بشيء مهم عندما تقاطعت أحاديثنا وارتفع صوت الفكر ؛ داخلنا ...

لم أكن يوما لأشكك بحجم الطهر الذي داخلي ؛ لم أثق حتى بنفسي حتى ... أتدري يا مختار ؟

أنه ليس بالشيء اليسير أن ينام طفل بين أحضانك بكل هدوء وبلمح البصر بعد أن ضاقت به الأرض لوما و عتابا .

كيف يمكن لطفل أن يميز بين الأرواح ...

كيف له أن يرتاح على ذراع ويتعب على أخرى .

لم أكن أهتم كثيرا لهوية الروح ؛ يا مختار ..

وما إن فكرت بالبحث حولها ؛وجدتني أبحث عن مفهوم الإنسانية والإنسان

ولم أكن أبحث عن الدين والديانة والمذهب والحلال والحرام .

الروح تشبه تركيبة الطفل الصغير ؛ وعالمها ؛ يشبه عالمه ..

الروح مجردة من الهوية تماما مثلما عندما ولدنا مجردون من الأسماء .

يقول أدهم الشرقاوي

" دخلت امرأة من الأنصار على عائشة رضي الله عنها

في حادثة الإفك

وبكت معها كثيرا دون أن تنطق كلمة

قالت عائشة : لا أنساها لها.

عندما تاب الله على كعب بن مالك

بعدما تخلف عن تبوك

دخل المسجد مستبشرا

فقام إليه طلحة يهرول واحتضنه

قال: لا أنساها لطلحة .

من هنا سيدي مختار

من هنا تأتي النهاية سيدتي عائشة

من هنا ستختار قدر طريقها

من هنا سأعود إلى نقطة البداية وأعيد شريط القدر

سأشاهده حتى النهاية

لكن هذه المرة سأصفق لأخطائي؛ سأضحك بوجهها

لن أثور ؛ لن أخاف ؛ لن أردد كلمة : لو ....

لن أتمنى الرجوع إلى الوراء بعد الآن ...

تعلمت الدرس يا مختار ...

إذا أخذت هذه الرواية بين أحضانك

احملها برفق كي لا توقظ من فيها

ضعها بمكان به دفء كبير كي لا تمرض سكان هذه الرواية

لا ترفع صوتك ولا تغضب لأنها لا تتحمل الصراخ ولا الألم

إياك أن تشعر بشيء من هذا وأنت تقرؤها .

مختار أنجدتني في الوقت المناسب

عائشة التقيتك باللحظة المقدر لها أن نلتقي بها

.....

كلما أردت قوله يا قدر لا تنسي

مختار تذكر ..

....

عائشة مجبرة على التذكر

.....

أما أنا

فلا تهتم

مازلت أتعلم

يقول غابريال غارسيا ماركيز

" كل شيء نعتقد أننا نسيناه يستوطن أعماقنا في ذلك الصندوق

الذي ما إن يفتح حتى تتغير كل قوانين الطبيعة "

" يولد الماضي في الحاضر ويبعث الأموات من جديد

وتتصبب أجسادنا عرقا في برد الشتاء

ونرتعش بردا في حر الصيف"

يوما ما ستسمح الحياة لأحد الغرباء أو عابري السبيل

...

أو انسان التقيته في الغيب قبلا

بأن يدخل حياتك المشوشة ؛ ويصيبها بهدوء مريب

و إن كانت حياتك هادئة

ستصيب أيامك بعدوى الألم وشيء من الأمل

والهذيان وشيء قليل من البوح

والميل الشديد للبكاء

إلى درجة ترغب بالبكاء كطفل صغير

فجأة عندما تغلق جميع الأبواب

و عندما تعتاد حياتك الروتينية التي أصابتها الرتابة بالشلل

وترضى بما قسم الله لك

وتقرر أن تسعد بتعاستك

تأتي الصدفة ويدق جرس القدر

....

.....

ويقع ما قدر له أن يقع وما كتب في الصحف الأولى حتى قبل صحف إبراهيم وموسى

....

ويضعك بين أهواء متفرقة

بين قرارات ضائعة هي الأخرى

بين موت جسدي وموت نفسي حاد

وتأتيك السعادة المزيفة

في ثوب عروس عجوز مهترئ

بـــالي ؛ حزين ؛ عـقيم

و أنت في غمرات هذه السعادة وفي قمة عجزك

لا تجرؤ أن تشعر بالفرح أو السعادة

تخاف أن تتعثر بطرف أحلامك

إن أقدمت على ارتداء ثوب المجازفة

فإن سقطت

.....

.....

سيضحك ثغر القدر

وستخجل من الخذلان مرتين .

قدر علينا أن نستعد جيدا

ستأتي عائشة أيضا

والأمير عبد القادر

...

أمي تبدو بكمال زينتها وكأنها بعمر العشرينيات

أبي أيضا يبدو أوسم الرجال وهو ببدلته الأنيقة تلك

كل البيت يستعد

.....

قدر ثوب العروس الصغير هذا يليق بك كثيرا ...

ستكونين أصغر إشبينة ترافقني

.....

إنه اليوم الذي انتظرته

أن ترافقيني يوم زفافي

و أن تحاربي الخوف الذي بداخلي

.....

قدر

.....

لا تتركـــي يـــدي